المجـــــاز

« المجاز » اسم على وزن « مَفْعَل » بفتح فسكون ففتح ، وهو مشتق من الجواز ، يقال : جاز المكان يجوزه إذا تعداه وتركه ، وأصله : مجْوَز ، نقلت حركة حرف العلة إلى الساكن الصحيح قبلها ، فتحركت الواو بحسب الأصل ، وانفتح ما قبلها بحسب الآن فقلبت ألفا ، فصارت « مجازا » وإنما سمى المجاز مجازا : لأنهم جازوا به موضعه الأصلى ، أو جاز هو مكانه الذى وضع له أولا ..

والمجاز لدى علماء البلاغة قسمان : لغوى ، وعقلى/ والذى يعنينا فى هذا المقام هو الأول ، أى « اللغوى » .. أما الثانى وهو « العقلى » فقد ألحقوه ببحوث علم المعانى .. وبعضهم ألحقه بعلم البيان ويحسن قبل أن نلج مباحث « المجاز اللغوى » بفرعيه : « الاستعارة ، والمجاز المرسل » : أن نتتبع كلمة « المجاز » ، ونلاحق تطوراتها ، فى شىء من الإيجاز والقصد .. فماذا عن هذه الكلمة ؟ وماذا عن استخداماتها ؟ يكاد يكون من المقطوع به : أن أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٧هـ) : هو أول من استخدم كلمة « مجاز » ، حين جعلها عنوانا لكتابه الذى أسماه : « مجاز القرآن » .. غير أنه لا يريد بالمجاز هنا : ما يقابل الحقيقة ، وإنما يريد بها تفسير الكلمة ، وتوضيح معناها ، وبخاصة إذا كانت غريبة أو طريفة ، ولذا فقد جاء كتابه ، تفسير غريب القرآن ، ولم يعرض فيه قط للصور البيانية القرآنية المصطلح عليها ، فهو يفسر مثلا قوله تعالى :

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (طه : ٥) .. أى علا .. ويقول فى قوله تعالى : ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ (المؤمنون : ٢٥) .. مجازها الجنون وهما واحد[١] .

---

(١) مجاز القرآن جـ ٢ ص ٥٧ .

ثم جاء ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، ورأيناه يفهم من كلمة « المجاز » ما فهمه أبو عبيدة ، يقول فى ذلك : « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين .. إلى غير ذلك من طرق القول ومآخذه[1] .

لكن ما تلحظه هنا : أن ابن قتيبة أكثر تحديدا من أبى عبيدة ، لأنه فسّر كلمة « مجاز » ، وجعلها تعنى : « طرق القول ومآخذه » ، أى فنون الكلام وألوانه وصوره[2] .

ثم يجىء دور الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ذلكم الأديب العالم الموسوعى ، فتغير مفهوم المجاز على يديه ، وتحدد فى مدرسته ، وصار المجاز بالمعنى المعروف الآن ، وأصبح يمثل قسما مقابلا للحقيقة ، ولم يعد بمعنى التفسير ، كشأنه عند أبى عبيدة ..

ومما نلفت إليه : أن الجاحظ أديب معتزلى ، يؤمن إيمانا عميقا بوجود المجاز فى القرآن الكريم ، وفى لغة العرب وأساليبهم ، ومن ثم فقد حدث تهارش بينه وبين أهل الظاهر ، وأصحاب الحديث ، فى المجاز كظاهرة أسلوبية ، ومن ثم فقد تناولهم الجاحظ ، وهاجمهم بعنف ، وسلقهم بألسنة حداد ، واتهمهم بسوء الإدراك ، وعدم الفهم ، ومحدودية الإلمام بدقائق أساليب القرآن ، ناهيك بأساليب العرب .. ثم يورد الجاحظ أمثلة للمجاز من القرآن ، فيقول فى قوله تعالى : ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ (النحل : ٦٩) .. العسل : ليس شرابا ، وإنما هو شىء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا ، فسماه شرابا إذ كان منه يجىء الشراب ، ومن حمل اللغة على

---

١ - تأويل مشكل القرآن ص ١٥ .
٢ - أثر القرآن فى تطور النقد العربى ...

المركب لم يفهم من العرب قليلا ولا كثيرا ، وهذا الباب مفخرة العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب وطعن عليه من هذه الحجة ؟[١] .

ويقول فى قوله تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ (النساء : ١٠) .

وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحدا فى سبيل الأكل ، وقد قال : ﴿إنما يأكلون فى بطونهم نارا﴾ ، وهذا مجازا آخر ..

ومضى الجاحظ يعدّد الآيات التى فيها مجازات ، ويورد كثيرا من أشعار العرب ، التى تضمنت أنواعا من المجاز ، ونراه يعقب على ذلك بقوله : « وهذا كله مجاز »[٢] .

وبتحديد الجاحظ لمعنى المجاز ، وأنه ما قابل الحقيقة : أخذت كلمة « المجاز » صبغتها البلاغية ، وشكلها البيانى ، وانطلق العلماء على أثر ذلك ، يتحدثون عن المجاز بأنواعه ، ويتناولونه فى صوره الزاهية ، وتراكيبه الممتعة ، فلا غرو أن المجاز — فى الأعم الأغلب — أكثر بلاغة من الحقيقة ، وأبهى رواء منها ، لما يتضمنه من تخييل وطرافة ، وما يخلعه على النص من توهج وإثارة وعلى الرغم مما يتبوؤه المجاز من مكانة عالية ، ودرجة سامية : إلا أن قوما أنكروه وعابوه ، وزعموا أنه ليس هناك من حاجة إليه .. فماذا عن ذلك ؟

---

(١) الحيوان جـ ٥/ ٤٢٦ .

(٢) الحيوان جـ ٥ ص ٢٨ ، ٥٢ .

المجاز بين المثبتين والمنكرين

شغلت قضية « المجاز » أذهان البلاغيين ، وحمى فى ساحتها وطيس النقاش ، وثار حولها الجدل ، واعترك الفكر عراكا حاميا ، ودارت تساؤلات : هل الأساليب كلها حقيقة ؟ أم أن بعضها حقيقى والآخر مجازى ؟ – وفى تصورى – أنه ما كان ينبغى أن يكون خلاف – ألبتة – حول هذه القضية ، لأن المجاز ظاهرة أسلوبية تطبيقية ، لها حضور ومعايشة ، ووجود وممارسة فى لغة العرب ، يدرك ذلك من له تصور وثيق ، للأساليب العربية ، ومَنْ عنده إلمام دقيق بوجوه التخاطب لديهم ..

لكن الذى حدث .. أن أصواتا قوية واجهت فكرة « المجاز » وعارضتها بشدة ، منكرة لها ، مزرية على المنادين بوجودها .. ثم أثارت هذه الأصوات تساؤلات لا تخلو من ذكاء وعمق : لم المجاز ؟ وما الداعى إليه ؟ .. ولماذا يلجأ إليه المتكلم وفى وسعه أن يعبر عن المعنى بأسلوب الحقيقة ؟ ألم يكن اللائق بجلال القرآن أن يعبر عن قضاياه وأحكامه تعبيرا مباشرا ، بدلا من هذا التجوز الموقع فى الإيهام والتخبط ؟ ثم إن هذا الذى يؤثر أساليب التجوز على الحقيقة ، لابد أن تكون الأخيرة قد ضاقت عن معناه ، وقصرت عن أدائه ، ومن ثم يلجأ إلى المجاز .. فهل هذا يمكن أن ينطبق على الله جل ذكره ، وتقدست ذاته ؟ أليس الله قادرا لا يعجزه شىء مهما كان ؟ فكيف يقع فى كلامه تعالى شىء من المجاز ؟ ؟

هذه التساؤلات – بكل ما فيها من إثارة ومحاذير – قد أوعزت إلى علماء الظاهرية ، كداود بن على الأصبهانى (ت ٢٧٠) ، وابنه أحمد (ت ٢٩٧) ، وابن القاص من الشافعية (ت ٣٣٥) ، وغيرهم : أن ينكروا المجاز ، ويجحدوا دوره فى الأساليب .. وكذلك دفعت هذه التساؤلات نفرا من العلماء

الراسخين ، كابن تيمية ، وتلميذه ابن القيمّ الجوزية : إلى القول بعدم وجود المجاز .. وحجتهم فى ذلك : أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إليه ، إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير ، والله منزه عن ذلك[1] ...

بيد أن أهل السنة والأشاعرة والمعتزلة : قد ذهبوا إلى خلاف ذلك ، وقالوا : بوجود « المجاز » ، بل وبضرورته فى كثير من الأساليب ، التى يتعين فيها « المجاز » طريقا لتأدية المعنى ، بحيث لا يفهم المراد إلا من خلاله ، والشاهد على ذلك قول الحق جل جلاله : ﴿ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ..﴾ .. (الإسراء : ٧٢) فيستحيل – هنا – أن يراد من العمى : المعنى الحقيقى ، وهو فقد البصر ، لأننا لو قررنا ذلك : لكان كل من ضاع منه بصره فى الدنيا : يحشر يوم القيامة على صورته التى كان عليها من العمى الحسى ، وتصير عاقبته : إلى هلاك وبوار وضلال ، ولم يقل أحد بذلك على الإطلاق .. كيف وقد روى الصادق المصدوق محمد ﷺ ، عن رب العزة – تبارك وتقدس – : « من أخذت منه حبيبتيه (عينيه) فصبر لم أجد له جزاء إلا الجنة .. » .. ؟ ؟

معنى هذا : أن المجاز فى الآية السابقة – وغيرها كثير – متعين ، ولابد من القول به ، لتفهم الآية حق الفهم ، فلا يراد من العمى فيها : المعنى الحقيقى ، وهو فقد البصر ، وإنما يرام منه : المعنى المجازى ، وهو عمى البصيرة ، وانطماس القلب – أعاذنا الله من ذلك – .. وإن شئت فاقرأ قول ربنا فى ذلك : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ..﴾ .. (الحج : ٤٦) ..

والمجاز عند أهل السنة ومن وافقهم : ليس فهاهة فى التعبير ولا عجزا ، بل هو مظهر من الثراء اللغوى ، تزدان به لغة الضاد وتتألق ، وقد نزل القرآن

---

(١) البرهان جـ ٢ / ٢٥٥ .

بلسان عربى مبين ، وفيه ما فى لغة العرب ، من أنواع المجازات ، التى تأخذ بالألباب ..

كما أن المجاز ليس كذبا ، كما يزعم منكروه .. يقول ابن قتيبة – وهو من أهل السنة – : « لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، ورخص السعر ، ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كوّن »[١] .

ويقول ابن قتيبة فى موضع آخر : « إن العرب تقول إذا أرادت تعظيم مهلك رجل عظيم : أظلمت الشمس له ، وخسف القمر لفقده ، وبكته الريح والسماء والأرض ، يريدون المبالغة فى وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت ، وليس ذلك بكذب ، لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه .. »[٢] ..

وممن دافع عن المجاز : إمام البلاغة « عبد القاهر الجرجانى » ، وهو رجل أشعرى ، وذلك حيث يقول : « ومن قدح فى المجاز وهمّ أن يصفه بغير الصدق ، فقد خبط خبطا عظيما ، وتهدف لما لا يخفى .. »[٣] ..

وفى تصور الإمام عبد القاهر ، رحمه الله ، أنه ليس هناك ما يمنع أهل الظاهر من التأويل المجازى للقرآن الكريم ، فإن توهمهم أن المجاز – ومنه الاستعارة – إنما هو نوع من الكذب الذى ينبغى أن ينزه عنه كلام الله : توهمٌ فى غير محله ، لأن الاستعارة لا تغير المعنى أو تعدّله ، وإنما تغير طريقة إثباته ، وتجعله آنق وأشد تأثيرا ، مما لو قدُم عاريا دون ثوب الاستعارة أو كسائها ..

إن الاستعارة من « العارية » ، وحالها من المعنى حال الثوب يستعيره الرجل ،

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٩٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢٧ ..
(٣) أسرار البلاغة ص ٢٣٩ .

فيتغير مظهره الخارجى ، ويكتسى جمالا أو قبحا ، لكن ذلك من قبيل الأعراض الطارئة التى لن تدوم إلا بدوام الإعارة ، وكما أنك لا تستطيع أن تخلع الرجل من السوقة ، وتغير من جوهره عندما تخلع عليه ثياب الملوك ، إذ يظل الملوك ملوكا ، والسوقة سوقة : كذلك المعنى محال أن يتغير فى ذاته ، عندما يكتسى ثياب الاستعارة ، أو يتبدى فى حللها .. »[1] ..

فالمجاز ثابت فى لغة العرب ، لا تستغنى عنه أساليبها بحال ، وهو يكسب المعنى حياة ، ويضفى عليه حركة ، وقد يشخصه ويجسمه إذا كان معنويا ، ويوضحه ويجليه إذا كان غامضا خفيا ، ومهما ذكر المنكرون للمجاز من تبريرات ، وارتكبوا الشطط فى التخريجات ، كأن يطلقوا على المجاز مثلا : « توسعا فى اللغة » : فإن الصواب فى هذا قد جانبهم ، والتوفيق قد خانهم ، والحق فى هذا أبلج لا يحتاج إلى نقاش ... ومما نلفت إليه هنا : أن الصور المجازية القرآنية ، التى يوهم ظاهرها مماثلة الله تعالى للحوادث : ينبغى أن نفهمها فى إطار قوله الأقدس : ﴿ليس كمثله شىء ..﴾ (الشورى : ١١) .. فلله استواء يليق بذاته ، وله وجه يليق بذاته ، وله يد تليق بذاته ، وله مجىء يليق بذاته ، وله مكر يليق بذاته ، فجلت أفعال الله وتنزهت عن مشابهة أفعال خلقه ..

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨١ ..

المجاز اللغوى

ذكرنا آنفا أن المجاز ينقسم قسمين الأول عقلى يتعلق بالإسناد ، وهو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له بتأول ، كقولهم : أنبت الربيع البقل ، وأحيا الأرض شبابُ الزمان ، ففى الأول : أسند الفعل « أنبت » إلى غير فاعله الحقيقى وهو « الربيع » ، لأن الذى يُنبت حقيقة هو الله ، وفى الثانى : أسند الفعل « أحيا » إلى غير فاعله الحقيقى وهو « شباب الزمان » ، بينما الذى يحيى الأرض حقيقة هو الله عز وجل .. وهذا النوع من المجاز ، والذى يكون فيه الإسناد أمرا عقليا بحتا : لا حديث لنا فيه ، لأنه من بحوث « علم المعانى » ..

والثانى : لغوى ، يتعلق بالكلمة ، وقد عرفه العلماء بقولهم : « الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له ، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى للكلمة .. » .. ثم نوعوه إلى نوعين أصليين :

الأول : الاستعارة .. والثانى : المجاز المرسل .. وإليك البيان :

الاستعارة

الاستعارة لون من ألوان البيان ، وصورة مشرقة من صور الافتنان ، وهى فى سحرها أشد لطافة من نسمات السَّحرَ ، وفى رقتها وعذوبتها أكثر نداوة من أريج الزهر .. إنها طاقة من طاقات البلاغة ، ونفثة من نفثات الفصاحة ، ومدّ زاخر بمحاسن الأساليب ، وفيض دافق بروائع التراكيب ، لأنها تربك الجماد حيا ناطقا ، والأخرس فصيحا متكلما ، والأعجم لسنًا متحدثا ، والمعانى الخفية بادية جلية ..

ومن العجب أنها من التشبيه فرع ، وهو منها أصل ، يبد أن الفرع – هنا – قد تفوق على أصله ، وتسامى عليه ، وترامى رواقه فغطّى مساحات لم تُتح لهذا الأصل ، ومن ثم ، فالاستعارة تبدأ من حيث ينتهى التشبيه ، وتسير من حيث يتوقف ، وبذلك علت مكانتها ، وبذخت درجتها ، فإن مرتبتها الأدنى ، بعد مرتبة التشبيه الأعلى ، ومن سنن الله – جل جلاله – أن تتفاضل فيما بينها الأشياء ، حتى الأساليب والتراكيب .. وحقا .. إن هذا الشىء عجيب ..

ولا يعنى كلامنا هذا – ألبتة – تقليلا من دور التشبيه ، أو غضّا من قدره ، أو تصغيرا من شأنه ، فلولاه ما كانت الاستعارة ، وله عليها فضل السابق على اللاحق ، ومكانة التشبيه من البلاغة لا تحتاج إلى بيان !!

وإذ قد قررنا ذلك : فينبغى أن نسأل : ما الاستعارة ؟

الاستعارة : نوع من المجاز اللغوى ، وقد عرفه البلاغيون فقالوا : « هو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له » .. ثم نوعوه إلى قسمين ، حيث قالوا : « إن كانت العلاقة المشابهة فهو : استعارة ، وإن كانت غير المشابهة فهو : مجاز مرسل .. » ..

ومن هنا : يمكن تحديد مفهوم الاستعارة : لغة واصطلاحا :

فالاستعارة فى لسان اللغة : هى طلب الإعارة ، فإذا طلب صديق من صديقه أن يعيره كتابا ، فإن هذا الطلب يسمى لغة : استعارة ..

أما **الاستعارة** فى الاصطلاح ، فهى تعنى : « اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة ، مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له .. » .. أو هى بتعبير آخر : « مجاز علاقته المشابهة » ..

وبالنظر الدقيق إلى مفهوم الاستعارة ، ندرك : أنها فى الحقيقة : تشبيه حذف أحد طرفيه ، لأن المستعار له يقابل المشبه ، والمستعار منه يقابل المشبه به ، وحتى يكون الأسلوب استعارة ، لابد من الاستغناء عن أحد الطرفين ، إما المشبه أو المشبه به ، على نحو ما ستجده فى الأمثلة التالية :

١ – قال تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .. (الفاتحة : ٦ – ٧) ..

فالمؤمنون فى هذه الآية : يرجون ربهم ويدعونه أن يرشدهم إلى الصراط المعتدل ، صراط الأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين ، وإذا رجعنا إلى معنى الصراط فى اللغة : وجدناه يشير إلى الطريق ، ولا يعقل أن يقصد المؤمنون فى دعائهم : هدايتهم إلى الطريق المحسوس المعروف ، وإنما يريدون هدايتهم إلى الدين الحق .. إذن فقد استعير لفظ « الصراط المستقيم » للدين الحق ، لأن كلا منهما يوصل إلى المطلوب ..

ويمكن إجراء الاستعارة على النحو التالى :

شبه الدين الحق بالطريق المعتدل (المستقيم) ، بجامع الاهتداء فى كل ، ثم تنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، على طريق الاستعارة التصريحية ..

والقرينة هنا حالية : لأن الله لا يهدى إلى الطريق الحسىّ ، وإنما إلى شرعه ودينه ..

٢ – وقال تعالى : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون﴾ .. الشعراء : (٢٢٤ – ٢٢٥) ..

وبمهارة وحذق : يصور « الشريف الرضى » ما فى النص من استعارة خالبة ، فيقول : « وهذه استعارة ، والمراد بها – والله أعلم – أن الشعراء يذهبون فى أقوالهم المذاهب المختلفة ، ويسلكون الطرق المتشعبة ، وذلك كما يقول الرجل لصاحبه المخالف له فى الرأى : أنا فى واد وأنت فى واد ، أى أنت ذاهب فى طريق ، وأنا ذاهب فى طريق ..

وقيل : إن معنى ذلك : تصرف الشاعر فى وجوه الكلام ، من مدح ، وذم ، وعتب ، وغزل ، ونسيب ، ورثاء .. فشبهت هذه الأقسام من الكلام : بالأودية المتشعبة ، والسبل المختلفة ..[1] .

فلقد استعار لفظ « الأودية » للمقاصد والفنون الشعرية ، وإنما خصّ « الأودية » بالذكر ، دون الطرق والمسالك مثلا ، لأن المعانى الشعرية تستخرج من مواطنها بالفكر والروية ، ويكتنفها نوع من الغموض والخفاء ، ومن ثم كانت أشبه بالأودية ، لأن الوادى منحدر بيْن مرتفعين ، والسير فيه يتطلب نوعا من اليقظة والحذر ، لخفاء مسلكه ، ودقة مركبه ..

وإجراء الاستعارة : شبهت أغراض الشعر ومقاصده : بالأودية ، بجامع مطلق الذهاب فى كل ، ثم تنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التصريحية .. والقرينة حالية يدل عليها السياق ، لأن الشعراء

(١) القرآن بين الحقيقة والمجاز ص ٢٩ – محمد عبد الغنى حسن .

لايهيمون فى الأودية الحقيقية المألوفة ، بل يذهبون مذاهب شتى فى أغراض الشعر وفنونه ومقاصده .

٣ – وقال المتنبى من قصيدة يعاتب فيها سيف الدولة :

أمـا ترى ظفرا حلوا سـوى ظفر تصافحت فيه بيض الهند واللمم[١]

ومعنى البيت : أن الظفر لا يتحقق ولايُنال ، ولا يبلغ المرء فى عدوه الآمال ، إلا بعد صدام وقتال ، ومجالدة ونزال ، تصافح السيوف فيها الرءوس ..

ولو تدبرنا كلمة « تصافحت » : لآنسنا فيها استعارة ، ونقول فى إجرائها : شبه تلاقى السيوف بالرءوس : بالمصافحة ، بجامع الملامسة فى كل منهما ، ثم تنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، ثم اشتق منه « تصافحت » : بمعنى : « تلاقت » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرنية : هى إسناد « تصافحت » إلى « بيض الهند واللمم » .

٤ – وقال المتنبى يصف جيشا لسيف الدولة :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفى أذن الجـوزاء منـه زمازم[٢]

يقول : هذا الجيْش كثير لجب ، قد عم الشرق والغرب ، وشقت أصوات أهله أجواز الفضاء ، حتى كادت تخترق الكواكب ، ولو كان للجوزاء (برج فى السماء) أذن ، لا لتقطت من هذه الأصوات أخلاطا ، لكنها لا تبين ولا تفسّر ..

فقد شبه الجوزاء بإنسان – على عادتهم فى جعل النجوم عاقلة – ثم استعار فى نفسه لفظ الإنسان للجوزاء ، ثم حذفه ، ودلّ عليه بإثبات لازمة ، وهو

---

(١) اللمم : جمع لمة بكسر اللام وهو الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن .

(٢) الخميس : اسم للجيش لأنه خمس فرق ، زمازم : أصوات مختلطة لا تفهم : جمع زمزمة .

« الأذن » للجوزاء ، على طريق الاستعارة المكنية ، والقرينة هى : إثبات الأذن للجوزاء ..

ومما يلفت النظر : أن الموجود من أركان التشبيه فى هذا البيت : هو المشبه ، أما المشبه به فقد حذف ، ورُمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو « أذن » .

ومن هنا : يتضح ما أومأنا إليه سابقا : من أن أصل الاستعارة : تشبيه حذف أحد طرفيه ، ووجه شبهه وأداته ، ولذلك فهى تتنوع إلى نوعين :

أحدهما : الاستعارة التصريحية : وهى التى صرح فيها بلفظ المشبه به ، وتتنوع إلى : أصلية ، وتبعية ..

وثانيهما : الاستعارة المكنية : وهى التى حذف فيها المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ..

وسواء كانت الاستعارة تصريحية أو مكنية : فلابد أن يتحقق فى أسلوبها ما يصحح المشابهة ، ويحسن المماثلة ، ويسوغ إلحاق المستعار له « المشبه » بالمستعار منه « المشبه به » ، وهو ما أطلق عليه البلاغيون « الجامع » وهو ما يعرف فى التشبيه بـ « وجه الشبه » .. حينذاك يكون الترابط والتآلف : بين ما يستعار له وما يستعار منه : مسوّغا أصيلا ، ودعامة وطيدة ، يبنى عليها كيان الاستعارة فى الأساليب ، تماما كما يحدث فى الإعارات المادية ، المتبادلة بين الناس ، والتى يحكمها ويوجهها ويسوغها : علاقة حميمة ، وصلات وثيقة ، تبرر أن يطلب بعضهم من البعض الآخر ، ويستعير بعضهم من البعض الآخر .

الاستعارة الأصلية والتبعية

المتتبع للأساليب العربية التى توشت بالاستعارة : يجد أن اللفظ المستعار يدور معناه حول الأوجه التالية :

١ – أن يكون اسم عين يصلح – بأصل وضعه – لأن يصدق على كثيرين ، مثل : أسد ، بدر ، بحر ، شمس ..

٢ – أن يكون اسم عين يصلح – بعد التأويل فيه – لأن يصدق على كثيرين ، مثل : حاتم ، سبحان ، مادر ، باقل ، قسّ ..

٣ – اسم معنى يصلح لأن يصدق على كثيرين ، مثل : الفهم ، الكتابة ، الجلوس . فإذا كان اللفظ المستعار واحدا من هذه الأنواع : سميت الاستعارة « أصلية » ..

٤ – أن يكون فعلا ماضيا أو مضارعا أو أمرا ..

٥ – أن يكون صفة مشتقة ، كاسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسمى الزمان والمكان ، وأفعل التفضيل ..

٦ – أن يكون حرفا دالا على معنى ، مثل : من ، فى ، كى ، على ..

فإذا كان اللفظ المستعار واحدا من هذه الأنواع : سميت الاستعارة : « تبعية » ...

وكما يقولون : يتضح الحال بسوق الأمثلة والشواهد :

أولا : الاستعارة الأصلية

قال الله تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ (إبراهيم:١) .

فقد شبه الضلال بالظلمات ، بجامع عدم الاهتداء فى كل منهما ، ثم استعير لفظ الظلمات للضلال ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ثم شبه الهدى بالنور ، بجامع الاهتداء بكل منهما ، واستعار لفظ النور للهدى ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .. والقرينة قوله : « كتاب » ، لأن الكتاب لم ينزل لإخراج الناس من ليل إلى نهار حقيقيين ، بل لتحويلهم من الكفر إلى الإيمان ..

وقال تعالى : ﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾ .. (الأحزاب : ٤٥ – ٤٦) ..

فقد شبه السياق الشريف : نبى الله محمدا ﷺ ، والمراد الضمير فى : « أرسلناك » : بالسراج ، أى الشمس ، بجامع أن كلا منهما يهدى ويبين ، ثم استعار لفظ السراج للنبى المدلول عليه بكاف الخطاب ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .. والقرينة قوله : « أرسلناك » .. فإن الأنبياء لا يرسلون ليكونوا شموسا أو اقمارا ، وإنما ليبينوا للناس ، ويهدوهم إلى صراط الله المستقيم .. وانظر إلى روعة الانتقاء فى قوله : « وسراجا » : فإن السراج يمد غيره بالنور دون انقطاع أو نفاد ..

وقد تقول أنت فى كلامك : « سلمت اليوم على حاتم » و« استمعت اليوم إلى قس .. » .. تريد بحاتم : رجلا جوادا ، وبقسّ : رجلا بليغا .

فقد شبهت الرجل الكريم : بحاتم ، بجامع الجود فى كل منهما ، ثم تناسيت التشبيه ، وادعيت أن الرجل الكريم فرد من أفراد حاتم ، وداخل فى جنسه ، ثم استعرت لفظ حاتم من معناه الحقيقى وهو « الجواد » : للرجل الكريم ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ..

ويمكننا إجراء الاستعارة فى « قس » كما أجريناها فى « حاتم » : فنقول : شبه الرجل البليغ : بقس ، بجامع الإبانة والبراعة فى كل ، ثم تنوسى التشبيه ،

وادعى أن الرجل البليغ فرد من أفراد قس ، ثم استعير لفظ قس من معناه الحقيقى وهو البليغ : للرجل الفصيح ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة فى كلتا الاستعارتين ، هى كلمة « اليوم » ، فإن حاتما الطائى وقس بن ساعدة ، قد خليا وماتا منذ قرون ، ولا يعقل – ألبتة – أن يكون كل واحدا منهما مقصودا بذاته ..

ونلفت هنا : إلى أن الاستعارة فى الأعلام الفردية ، لا تسوغ ولا تصح ، إلا إذا خرجت هذه الأعلام عن نطاق الذاتية ، إلى نطاق العالمية ، بأن تكون قد اكتسبت صفات مبرزة ، اشتهرت بها وتعالمت ، وأصبحت من خلال ذلك : صالحة لأن تصدق على كثيرين ، ومن ثم اعتبرت من أسماء الأجناس ، التى تجرى فيها الاستعارة التصريحية الأصلية .. وإنما شرطنا هذا الشرط فى استعارة الأعلام الشخصية : لأن الاستعارة مبناها على المبالغة ، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، وهذا لا يتم إلا إذا صار المشبه به مشهورا متعالما ، ينضوى تحته أفراد كثيرون ، ويصدق عليهم ولو تأويلا .

ومن هنا : فكل الأعلام التى يضرب بها المثل فى صفات تميزت بها ، واشتهرت بسببها : تدخل حلبة الاستعارة ، إثراء للغة ، وإغناء للأساليب ، وتمديدا للخيال ، وتوسيعا لجنبات الفكر اللماح .. ألم يقل الشاعر قديمًا :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

ثانيا : الاستعارة التبعية

أولا : الاستعارة فى الفعل :

قال تعالى : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ..﴾ .. (الأنعام : ١٢٢) ..

والمعنى : أو من كان ضالا فهديناه ، لكن النظم القرآنى الجليل ، عبر عن الضلال بالموت ، وعن الهداية بالإحياء ، لأنهما أبلغ ، إذ فيهما برز المعنوى فى

صورة محسوس مرئى ، وذلك أبلغ فى التأثير ، وأقوى فى البيان . وموطن الشاهد فى قوله « أحييناه » : أى هديناه .. والكلام لا يخلو من استعارة .. **وإجراؤها** أن نقول : شبهت الهداية بالإحياء ، بجامع ترتب الانتفاع والمآثر فى كل منهما ، ثم تنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، ثم اشتق من الإحياء : « أحيا » بمعنى : « هدى » على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة حالية ؛ يدل عليها سياق الآية ، فليس المراد بقوله : « أحييناه » : أوجدنا فيه الحياة ، بل المراد هديناه ..

وقال تعالى : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين..﴾ .. (الحجر : ٩٤) ..

فقوله « اصدع » : بمعنى : « بلّغ » .. فقد شبه التبليغ : بالصدع أى الشق ، بجامع التأثير فى كل منهما ، فالتبليغ يؤثر فى الأمور المبلّغة ببيانها وجلائها ، حتى لا تعود إلى الخفاء .. والصدع أى الكسر : يؤثر فى الشىء المكسور فلا يؤول إلى الالتئام مرة ثانية ، ثم استعير الصدع للتبليغ ، ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ : اصدع : بمعنى : بلّغ ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هنا : الجار والمجرور فى قوله : « بما تؤمر » .

وقال تعالى : ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية﴾ .. (الحاقة : ١١) .

الشاهد فى قوله : « طغى » : فقد شبهت كثرة الماء : بالطغيان ، بجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعلاء المفرط فى كل منهما ، ثم استعير الطغيان : لكثرة الماء ، واشتق منه « طغى » ، بمعنى كثر ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة هى : إسناد « طغى » للماء ..

ومن شوامخ الاستعارات القرآنية ، قوله عز وجل :

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ..﴾.. (الأنبياء : ١٨) ..

ويعلق الرمانى على هذه الآية قائلا : فالقذف والدمغ هنا مستعار ، وهو أبلغ ، وحقيقته : بل نورد الحق على الباطل فيذهب ، وإنما كانت الاستعارة أبلغ ، لأن فى « القذف » : دليلا على القوة والقهر ، فالحق يُلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار ، لا على جهة الشك والارتياب ، وقوله « يدمغه » أبلغ من « يذهبه » : لما فى « يدمغه » : من التأثير ، فهو أظهر فى النكاية ، وأعلى فى قوة التأثير ..[1] ..

ومن ذلك أيضا : قول الله تعالى : ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ..﴾ .. (الكهف : ٩٩) ..

فكلمة « يموج » : لا تقف عند استعاراتها لمعنى الاضطراب ، بل إنها تصور للخيال ، هذا الجمع الحاشد ، الذى لا تدرك العين مداه ، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ، ما تراه فى البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ..

وكلمة « تموج » : توحى بهذا المعنى وتدل عليه ..[2] ..

فانظر – رعاك الله – إلى الدقة والجزالة ، فى انتقاء الاستعارات القرآنية .. إنها – حقا – فضفاضة واسعة ، نابضة موحية ..

وقد تقع الاستعارة فى الفعل باعتبار زمنه :

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ .. (الأعراف : ٥٠) ..

وضع الماضى هنا وهو « نادى » موضع المضارع : « ينادى » ، لأن النداء

---

(١) (النكت ص ٨٨) .

(٢) من بلاغة القرآن ص ٢١٨ .

لما يقع ، ولن يحدث إلا يوم القيامة .. فقد شبه النداء فى المستقبل : بالنداء فى الماضى ، بجامع تحقق الوقوع فى كل منهما ، ثم استعير النداء فى الماضى للنداء فى المستقبل ، ثم اشتق من النداء : « نادى » بمعنى « ينادى » ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة : إسناد الفعل لأصحاب النار .

وقال تعالى : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه ..﴾ .. (النحل : ١) .

فقد عُبر هنا عن المضارع بالماضى ، لأن أمر الله – وهو يوم القيامة – لما يأت ، ومن ثم ، ففى قوله : « أتى » : استعارة ، حيث شبه الإتيان فى المستقبل : بالإتيان فى الماضى ، بجامع تحقق الوقوع فى كل منهما ، ثم استعير الإتيان فى الماضى للإتيان فى المستقبل ، ثم اشتق من الإتيان : « أتى » بمعنى : « يأتى » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ..

والقرينة : إسناد الفعل « أتى » لأمر الله ..

وإذا كان من البلاغة بمكان : أن يُعبر عن المستقبل بصيغة الماضى ، على سبيل الاستعارة : فإن إبراز الماضى فى صورة المضارع استحضارا لصورته العجيبة : أمر له طرافته وجدته ، وهو من البلاغة – أيضا – فى الدرجة العالية ، لأنه يجعل الحدث ، وكأنه ماثل شاخص ، يملأ البصر ، ويداعب الخيال .. فمن ذلك :

قول الله تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ..﴾ .. (البقرة : ١٢٧) . فقد أتى المضارع هنا وهو « يرفع » مكان الماضى : « رفع » .. حيث إن رفع قواعد البيت : أمر قد تم منذ قرون متطاولة ، بواسطة إبراهيم وإسماعيل – عليهما الصلاة والسلام – ففى قوله : « يرفع » : استعارة ، فقد شبه الرفع فى الماضى : بالرفع فى الحال ، بجامع شدة الانكشاف والظهور فى كل منهما ، ثم استعير الرفع فى الحال ، للرفع فى الماضى ، واشتق من الرفع « يرفع » بمعنى : « رفع » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة : إسناد الفعل « يرفع » لإبراهيم عليه السلام ..

وقال الله تعالى : ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ..﴾ .. (فاطر : ٩) ..

فالرياح منذ خلقها الله وأرسلها ، وهى تثير السحاب وتحركها ، فظاهرة الإثارة قد وقعت وحدثت ، لكن السياق البليغ المعجز ، قد أبرز الإثارة ، وكأنها تقع الآن .. ففى الأسلوب استعارة :

فقد شبه الإثارة فى الماضى : بالإثارة فى الحال ، بجامع شدة الانكشاف والظهور فى كل ، ثم استعيرت الإثارة فى الحال للإثارة فى الماضى ، ثم اشتق منها : « تثير » بمعنى « أثارت » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة : إسناد الفعل « تثير » إلى الضمير العائد إلى الرياح ..

ومن ذلك : قول « تأبط شرا » : حيث زعم أنه قتل الغول :

فأضربها بلا دهش فخرت صريعـــا لليدين وللجران[1]

الشاهد فى قوله : « فأضربها » فهو بمعنى « ضربتها » .

فقد شبه الضرب فى الماضى : بالضرب فى الحال ، بجامع شدة الظهور فى كل منهما ، ثم استعير الضرب فى الحال ، للضرب فى الماضى ، ثم اشتق منه « أضربها » بمعنى : ضربتها ، والقرينة حالية ، يوضحها سياق الأبيات ..

ثانيا : الاستعارة فى المشتقات :

قال شاعر يخاطب طائرا :

أنت فى خضراء ضاحكة من بكـــاء العارض الهتن

الشاهد فى قوله : « ضاحكة » ، فهى بمعنى : مزهرة .

فقد شبه الإزهار : بالضحك ، بجامع التألق والبياض فى كل منهما ، ثم

استعير « الضحك » للإزهار ، ثم اشتق من الضحك بمعنى الإزهار : ضاحكة بمعنى مزدهرة ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هى : إسناد « ضاحكة » : إلى ضمير : خضراء ، أى جنة خضراء .. فالاستعارة هنا : وقعت فى « ضاحكة » وهى اسم فاعل .

وقال تعالى يحكى عن الكافرين :

﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين ..﴾ .. (الأنبياء : ١٤ – ١٥) ..

والمعنى : أن هؤلاء المجرمين قد مزقهم الله كل ممزق ، وجعلهم كالزرع المحصود الهامد الميت .. ويلاحظ أن أصل الخمود : للنار ، يقال : خمدت ناره ، بمعنى : هدأت وانطفأت ، لكن الخمود أبلغ ، لأنه أقوى فى الدلالة على الهلاك :

فقد شبه هلاك القوم وثباتهم فى أماكنهم : بخمود النار ، بجامع عدم الحركة فى كل ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، ثم اشتق من الخمود « خامدين » بمعنى : ميتين هادئين ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ..

وقال تعالى :

﴿ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ..﴾ .. (يس : ٥١ – ٥٢) .

أصل الرقاد النوم ، وحقيقته : الموت ، والاستعارة أبلغ ، لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت ، لأن الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة ..

والشاهد فى الآية : قوله : « مرقدنا » ، فهو بمعنى « قبرنا » .

فقد شبه الموت : بالرقاد ، بجامع خفاء الأثر فى كل منهما .. ثم استعير الرقاد : للموت ، ثم اشتق من الرقاد بمعنى الموت : مرقد ، بمعنى مكان الموت ، وهو « القبر » ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هى قوله « بعثنا » ..

وهذا الإجراء الاستعارى ملاحظ فيه أن « مَرقد » اسم مكان ، فيكون مشتقا ، أما إذا اعتبرناه « مصدرا ميميا » : فالاستعارة حينئذ : أصلية ..

ثالثا : الاستعارة فى الحروف :

قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ..﴾ .. (القصص : ٧ – ٩) .

« فاللام فى « ليكون » هى لام « كى » التى هى للتعليل ، كقولك : « جئتك لتكرمنى » ، ولكن التعليل فيها وارد على سبيل المجاز ، لا الحقيقة ، لأنه لم يكن داعى آل فرعون إلى الالتقاط : أن يكون لهم عدوا وحزنا ، وإنما ليكون حبيبا وولدا ، وحبورا وسرورا ، غير أن ذلك (أى العداوة والحزن) لما كان نتيجة التقاطهم له ، وثمرته المترتبة عليه : شُبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعلَ لأجله ، وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجئ .. وتحريره : أن اللام هنا : حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد .. » ..[1] ..

وإذا استعرضنا لام التعليل فى الآية الكريمة : لوجدناها تنبئ عن ذلك ، فإن الذى حمل آل فرعون على التقاط موسى : هو أن يكون لهم حبيبا وسرورا ،

---

(١) الكشاف جـ ٣/ ٣٠٩ .

لا أن يكون عدوا وحزنا ، بدليل قوله تعالى : على لسان امرأة فرعون : ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ .. فلو أن رجاءهم قد تحقق لقيل : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم حبيبا وسرورا » ، وحينذاك تكون اللام قد استعملت فى معناها الحقيقى .. لكن الذى حدث : أن « موسى » كان لهم عدوا وحزنا ، حيث ترتبت العداوة والحزن على الالتقاط ، وبذلك صارت اللام مستعملة فى غير ما وضعت له ، لعلاقة المشابهة ، فهى استعارة ..

وطريقة إجرائها على النحو التالى :

شبهت العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط فى الواقع : بالعلة الحقيقية التى هى المحبة والتبنى ، بجامع مطلق ترتب شىء على شىء ، ثم استعيرت اللام من معناها الحقيقى ، وهو ترتب العلة الحقيقية على الالتقاط : لترتب غير العلة الحقيقية عليه ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة : دخول اللام على العداوة والحزن ..

وقال تعالى يحكى عن الكفار يوم القيامة :

﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ..﴾ .. (الأعراف : ٥٣) ..

فالمعنى الحقيقى لكلمة « هل » : أنها أداة استفهام ، لكنها فى الآية الكريمة : تفيد معنى « التمنى » ، وذلك لسر بلاغى دقيق : وهو تنزيل المتمنى البعيد الحصول ، أو المستحيل الحدوث : منزلة الممكن القريب الوقوع ، إبرازا لكمال العناية به ، والرغبة فى تحققه .. فقد شبه مطلق التمنى : بمطلق الاستفهام ، بجامع الطلب فى كل ، ثم استعيرت « هل » الموضوعة للاستفهام : للتمنى ، والقرينة حالية ، لأن الكفار لا يتصور منهم استفهام ، لأنهم يدركون ويوقنون أنه ليس لهم شفعاء ، ولكنهم يتمنون أن يتحقق لهم ذلك ..

وقال تعالى : يحكى تهديد فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى :

﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ..﴾ .. (طه : ٧١) ..

ومعلوم أن لفظ « فى » موضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين ، مثل « الكتب فى الحقيبة » ، فإذا كان ما بعد « فى » يصلح لأن يكون ظرفا حقيقيا لما قبلها كانت « فى » مستعملة فيما وضعت له .. وإذا استعرضنا لفظ « فى » فى الآية الكريمة : وجدنا ما بعدها لا يصلح أن يكون ظرفا لما قبلها ، ومن ثم فهى مستعملة فى غير ما وضعت له ، وذلك أن الجذوع لا تصلح أن تكون ظروفا للمصلوبين ، لكن لما كانت الجذوع متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من المظروف : ساغ استعمالها فيه على سبيل الاستعارة ..

وإجراء الاستعارة يكون كالآتى : شبهت الجذوع المستعلى عليها : بالظروف الحقيقية ، بجامع التمكن فى كل منهما ، ثم استعيرت « فى » من معناها الحقيقى ، وهو تلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين : لتلبس الجذوع المستعلى عليها بالمستعلى ، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، والقرينة هى : دخول « فى » على الجذوع ..

رأى ابن يعقوب المغربى :

لابن يعقوب المغربى : أحد شراح التلخيص : رأى فى استعارة الحروف .. فقد ذهب إلى أنها من قبيل الاستعارة المكنية ، لأن المحذوف فيها هو المشبه به .. وذلك بأن يُشبه مدخول الحرف الآن بما كان حقه أن يدخل عليه ، تشبيها مضمرا فى النفس ، ثم نستعير المشبه به للمشبه ، ثم نحذف المشبه به ، ونرمز إليه بشىء من لوازمه وهو الحرف .. وإجراء الاستعارة عنده يكون على النحو التالى :

شبهت العداوة والحزن بالمحبة والتبنى ، ثم استعيرت المحبة والتبنى للعداوة والحزن ، ثم حذفت المحبة والتبنى ، ودل عليهما بشىء من لوازمهما ، وهو لام العلة على سبيل الاستعارة المكنية ، وإثبات للازم تخييل ، وهو قرينة المكنية ..

وفى تصورنا أن هذا الرأى جدير بالنظر والاعتبار ، لأنه أسلم الآراء ، وأبعدها عن التكلف ، وأنآها عن التعسف ..

ومن كل ما سبق ندرك : سر تسمية الاستعارة فى اسم الجنس : أصلية ، لأن الاستعارة تجرى فيه بطريق الأصالة والاستقلال ، من غير أن تتوقف على استعارة أخرى تنبنى عليها ..

وندرك : أن سر تسمية الاستعارة فى الفعل ، وفى الصفات المشتقة : تبعية ، هو أنها تابعة لاستعارة تسبقها فى المصدر المأخوذ منه الفعل والصفة .

الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة

من مفهوم الاستعارة الذى أشرنا إليه فيما مضى : ندرك أن مبنى الأمر فيها على تناسى التشبيه ، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، حتى كأن الموجود فى الواقع هو المشبه به دون المشبه ، ومن ثم فكل ما يذكر فى سياق الاستعارة ، ويكون من شأنه تقوية هذا المعنى وترسيخه : فهو فى صالح الاستعارة ، حيث يزيدها قوة وتمكنا ، وكل ضميمة تذكر – فى سياق الاستعارة – تضعف من تناسى التشبيه ، ودعوى الاتحاد : فهى فى غير صالح الاستعارة ، حيث تقلل من شأنها ، وتحط من قيمتها ، وتنزل من قدرها ..

وإذا كنا فى الاستعارة : نحذف أحد طرفيها ، إما المشبه وإما المشبه به ، وكان معلوما أن لكل منهما ما يلائمه من المعانى والقرائن : فإن الاستعارة تتنوع – باعتبار ذكر الملائم – لأحد طرفيها وعدم ذكره : إلى ثلاثة أنواع : مرشحة ، مجردة ، مطلقة ..

فالمرشحة : هى التى ذكر معها ما يلائم المستعار منه (المشبه به) ، وهى أبلغ أنواع الاستعارة ، لأن مادة « الترشيح » : تفيد معنى القوة ، يقال : ترشح الفصيل : إذا قوى على المشى ، فقد ذكر فى هذه الاستعارة ما يقويها ، ويؤكد الغرض الذى من أجله جاءت ، وهو تناسى التشبيه ، وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، وفى التصريح بذكر الملائم للمشبه به فى الاستعارة : ما يجعلها مغرقة فى البعد عن الحقيقة ، وهذا أدعى إلى كمال رسوخها فى البلاغة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت

ففى قوله : « اشتروا » : استعارة تبعية ، حيث شبه اختيار الضلالة على الهدى بالشراء ، بجامع ترك مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه ، ثم استعير المشبه به للمشبه ، واشتق من الشراء : اشتروا بمعنى : اختاروا .. والقرينة : استحالة تعلق الاشتراء الحقيقى بالضلالة والهدى ، وباستيفاء القرينة : تمت الاستعارة ..

ثم يأتى قوله : « فما ربحت تجارتهم » : تفريعا على الاستعارة ، حيث ذكر فيه ما يلائم المستعار منه ، وهو « الاشتراء » ، فإن نفى الربح فى التجارة من ملائمات البيع والشراء ، وهو المشبه به ، أو المستعار منه فى الآية ، فكان ذلك ترشيحا للاستعارة وتقوية لها ، فهى استعارة « مرشحة » ..

وقال الشاعر :

ينازعنى ردائـى عبد عمـــرو رويدك يا أخا عمرو بن بكـر
لى الشطر الذى ملكت يمينى ودونك فاعتجر منه بشطر[1]

والمعنى المراد : ينازعنى هذا سيفى الذى أحفظ به نفسى ، وأذود به عن عرضى ، ثم يلتفت الشاعر إلى مخاطبه قائلا : تمهل يا هذا ، فسأجعله بينى وبينك ، فأحتفظ لنفسى بما ملكته يمينى منه ، وأعطيك صدره ليغيب فى رأسك .. فقد استعار « الرداء » للسيف ، بجامع الحفظ والصيانة فى كل منهما ، والقرينة حالية ، يدل عليها سياق الكلام ..

ثم ذكر « الاعتجار » ،وهو ملائم للمستعار منه ، وهو الرداء ، وذلك ترشيح للاستعارة ، فهى – أيضا – استعارة مرشحة ..

الاستعارة المطلقة :

وهى كل استعارة لم يذكر معها معنى مما يلائم المستعار منه « المشبه به » ،

---

(١) رويد : اسم فعل بمعنى تمهل ، الشطر : النصف ، اعتجر : من الاعتجار وهو لف الرأس بثوب ونحوه ..

أو المستعار له « المشبه » .. وإنما سميت مطلقة : لأنها أطلقت عما يقويها وعما يضعفها من ملائمات المستعار منه والمستعار له ..

قال الله تعالى :

﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ .. (البقرة : ٢٦ – ٢٧) . فقد استعير العهد للحبل ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو النقض ، وهو قرينة المكنية ، ولم تقرن الاستعارة بما يلائم المشبه به أو المشبه .

وقال تعالى :

﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ..﴾ .. (الكهف : ٩٩) ..

فكلمة « يموج » استعارة للاضطراب والاختلاط الناشئين عن الحيرة ، والقرينة : إسناد الفعل إلى الضمير العائد على « بعضهم » ولم تقترن بما يلائم المشبه أو المشبه به ..

وقال تعالى :

﴿واتبعوا النور الذى أنزل معه ..﴾ .. (الأعراف : ١٥٧) .

والاستعارة هنا : فى قوله : « النور » : فهى مستعارة للهدى ، بجامع الاهتداء بكل منهما ، والقرينة هى « الذى أنزل معه » ، فالاستعارة مطلقة ، لأنها لم تقترن بشيء مما يلائم المستعار منه أو المستعار له حقيقة ..

وقال الشاعر :

سقاكِ وحيانا بك الله إنما على العيس نور والخدور كمائمه[1]

(١) العيس : الأبل ، نور : زهر ، الخدود : الأستار ، الكمائم : أغطية النورْ بسكون الواو ..

والشاعر يدعو فى هذا البيت : أن يسقى الله محبوبته ، وأن يحيّا بها كما يحيّا الناس بالأزهار .. فالاستعارة فى كلمة « نوْر » ، فقد شبه النساء : بالنور ، بجامع الحسن فى كل منهما ، والقرينة هى مقام الخطاب ...

وهذه الاستعارة مطلقة حكما ..

فكلمة « الخدور » تلائم المستعار له ، وهو النساء ، فهى تجريد ، وكلمة « الكمائم » تلائم المستعار منه وهو « النوْر » ، فهى ترشيح ـ وإذا اجتمع فى الاستعارة : التجريد والترشيح : كانت فى حكم المطلقة وفى مرتبتها ، لتساقط التجريد والترشيح بتعارضهما ، فكأنهما لم يذكرا ـ

ومثل البيت السابق قول الشاعر :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يضرْ ظـواهر جلدى وهو للقلب جارح

فقد استعار الشاعر لفظ « سهم » للنظر ، أما قوله : « وريشه » فهو ترشيح له ، لأنه من ملائمات المشبه به ، وهو السهم ، من قولهم : راش السهم ، إذا ألصق الريش ليكون أحكم فى الرماية ، ثم جاء قوله « الكحل » : تجريدا ، لأنه من ملائمات المشبه ، وهو النظر ، والقرينة حالية .. فقد اجتمع الترشيح والتجريد فى أسلوب الاستعارة ، فتساقطا ، فكأنهما لم يذكرا ، ومن ثم كانت الاستعارة مطلقة حكما ...

الاستعارة المجردة :

وهى التى قرنت بمعنى مما يلائم المشبه ..

من ذلك قول البحترى :

يؤدون التحية من بعيد إلى قمر من الإيوان باد

فقد شبه الممدوح : بالقمر ، بجامع الملاحة فى كل .. وقوله : « من الإيوان باد » : تجريد ، لأنه من ملائمات المشبه ، وهو الممدوح ، أما قرينة الاستعارة ، فهى قوله : « يؤدون التحية من بعيد » ..

ومن روائع الاستعارات فى هذا الباب : قوله تعالى :

﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ..﴾ .. (النحل : ١١٢) ..

والاستعارة فى كلمة « لباس » : فقد شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بأهل مكة : باللباس ، بجامع الاشتمال والإحاطة فى كل منهما ، والقرينة هى : إضافة اللباس إلى الجوع والخوف .

وقد قرنت هذه الاستعارة : بما يلائم المستعار له ، وهو قوله « فأذاقها » لأن المراد بالإذاقة : إصابتهم بما استعير له اللباس ، وهو المضار والآلام التى تترتب على الجوع والخوف ، والإذاقة بهذا المعنى : تلائم المشبه ... على أن استعمال « الإذاقة » فى « الإصابة » : استعارة جرت مجرى الحقائق ، لشيوعها فى البلايا والشدائد ، حيث يقال : « ذاق فلان البؤس » و « أذاقه الله العذاب » ..

وقد يثب إلى الذهن سؤال : لماذا لم يقل : « فكساها الله لباس الجوع .. » بدلا من : « فأذاقها الله لباس الجوع ... » .. وبذلك تصبح الاستعارة مرشحة ، وهى أبلغ من المجردة ؟ ؟

والجواب : أن المجردة فى هذا الموطن وفى هذا المقام : أبلغ وأجود ، وذلك لسر بارع دقيق ، هو : أن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، ففى التعبير بالإذاقة : إشعار بشدة الإصابة ، بخلاف التعبير بالكسوة ..

وإنما سميت الاستعارة هنا : « مجردة » ، لأنها جرّدت عما يقويها ، وذكر معها ما يضعفها ، لأن ذكر ملائم للمشبه : مضعف لتناسى التشبيه ، ومبعد

لدعوى الاتحاد بين المستعار منه والمستعار له ، وبذلك يقترب الأسلوب من الحقيقة ، ويكون منافيا للغرض الذى جاءت من أجله الاستعارة ..

ومما ينبغى أن يعلم : أن الترشيح والتجريد : إنما يكون كل منهما بعد تمام الاستعارة ، وتمامها باستيفاء قرينتها ..

البلاغة بين الاستعارات الثلاث

ذكرنا أن الاستعارة مبناها : على تناسى التشبيه ، ودعوى الاتحاد ، أى اتحاد المشبه به بالمشبه ، وصيرورة المشبه كأنه فرد من أفراد المشبه به ، وداخل فى جنسه ، وهذا من شأنه يقوى الاستعارة ، لأنه يباعدها عن الحقيقة ، ويمحضها للتجوز ، فكل ما يذكر – زائدا على القرينة – يدعم هذا المعنى ، ويشد من أزره : يكون فى صالح الاستعارة ، وكل ما يصرح به – زائدا عن القرينة أيضا – يضعف هذا المعنى ، ويقرب الاستعارة من الحقيقة : يكون فى غير صالح الاستعارة ..

فإذا جئنا لنطبق هذا المقياس على الاستعارات الثلاث : المرشحة ، والمطلقة ، والمجردة : ألفينا المرشحة أقوى أنواع الاستعارات ، وأكثرها بلاغة فى مقامها ، لأنه يذكر معها ما يلائم المشبه به ، وهذا بدوره : يجعل حديث التشبيه بعيدا من الأذهان ، ويزيد من دعوى اتحاد المشبه بالمشبه به ، فكأن المستعار مستعمل فى حقيقته ، لذلك كان الترشيح أقوى ..

ثم تأتى الاستعارة المطلقة فى المرتبة الثانية من الأبلغية ، بعد الاستعارة المرشحة ، لأنه لا يُذكر معها ما يقويها أو يضعفها ..

ثم تأتى الاستعارة المجردة فى الدرجة الثالثة من الأبلغية ، بعد الاستعارة المطلقة ، لأنه يذكر معها ما يلائم المشبه ، وهذا بدوره : يضعف من تناسى التشبيه ، ويوهن من دعوى الاتحاد ، ومن ثم تدنو الاستعارة من الحقيقة ، ويضعف المعنى الذى وردت من أجله ،

لذلك كانت الاستعارة المُجردة : أقرب إلى التشبيه ، وكانت – فى مجال الأبلغية – اقل من سابقتيها : المرشحة والمطلقة ..

قرينة الاستعارة

ذكرنا – سابقا – أن الاستعارة نوع من المجاز اللغوى ، وقررنا أنه لابد فى المجاز : من قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى ، وتعين المعنى المجازى المراد ، وإذا كان الأمر كذلك : فلابد للاستعارة من قرينة ، يصرف معها المعنى الحقيقى إلى المعنى المجازى المتخيل .. فماذا عن القرينة ؟

القرينة : هى الأمر الذى ينصبه المتكلم دليلا على أنه أراد باللفظ معناه المجازى لا الحقيقى .. وهى نوعان : لفظية وغير لفظية ..

فاللفظية : مادُل عليها بلفظ يذكر فى الكلام ، ليصرفه عن معناه الحقيقى ، ويوجهه إلى المعنى المجازى المراد ، على أن يكون من ملائمات المشبه فى الاستعارة التصريحية ، ومن ملائمات المشبه به فى الاستعارة المكنية .. وأمثلة هذا النوع كثيرة موفورة ، قد صافحت سمعك وناظريك فيما مضى من صفحات ..

وأما غير اللفظية : فهى التى دُل عليها بأمر خارج عن اللفظ ، وهذا النوع من القرينة يسمى « قرينة حالية » لأنها أمر عقلى ، لم يدل عليه بلفظ فى الكلام ، بل دل عليه بالحال .. وسواء كانت الاستعارة أصلية أو تبعية فلابد أن يوحى السياق بالقرينة ، ويلهم بها جو القصة ومناخ الحديث .. وإليك طائفة من الأمثلة :

قال الله تعالى : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ .. (الأنعام : ١٢٢) ..

والمعنى المراد : أو من كان ضالا بعيدا عن الإسلام فهديناه بالإيمان والقرآن . والآية تحوى استعارتين : إحداهما فى « ميتا » ، والثانية فى « أحييناه » .. فقد شبه الضلال بالموت ، بجامع ترتب عدم النفع فى كل منهما .. ثم استعير الموت : للضلال ، ثم اشتق من الموت « ميتا » بمعنى « ضالا » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ..

كما شبهت الهداية : بالإحياء ، بجامع ترتب آثار النفع على كل منهما ، ثم استعير الإحياء : للهداية ، ثم اشتق من الإحياء « أحييناه » بمعنى هديناه : على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

والقرينة فى الاستعارتين « حالية » يدل عليها سياق الكلام ، ومجرى الحديث ..

وقال « الحطيئة » يسترضى عمر بن الخطاب ، بعد أن أودعه السجن ، لسلاطة لسانه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر- عليك سلام الله - ياعمر[1]

والاستعارة فى كلمة « أفراخ » : فقد شبه الشاعر أطفاله الصغار : بأفراخ الطائر ، بجامع الحاجة إلى الرعاية فى كل منهما ، ثم استعار الأفراخ للأطفال ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .. والقرينة هنا - كما يبدو - حالية ، يرشد إليها جو القصة ، وعلمُنا بموقف عمر من الشاعر ، حيث حبسه ، لخوضه فى هجاء المسلمين ، وثلبه لأعراضهم ، ومن ثم فقد تأكد لدينا : أنه قال هذا الشعر يستعطف به الفاروق عمر ، وأنه لا يريد بالأفراخ : حقيقتها ، وإنما يريد بها : أولاده الصغار ، ولذا فهى استعارة ، والقرينة حالية ، وليست لفظية ..

وإذا أمعنا النظر : وجدنا فى كلمة « كاسب » : استعارة .. فقد شبه الشاعر نفسه : بالجارح من الطيور ، بجامع القدرة على تحصيل الرزق ، والرعاية لصغاره فى كل منهما ، ثم استعار : الكاسب لنفسه ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة هنا حالية » ، كما فى كلمة « أفراخ » ..

---

(١) ذو مرخ : واد بالحجاز ، زغب : جمع زغباء من الزَّغَب وهو صغرُ الريش ولينه ، الحواصل : جمع حوصلة وهى كالمعدة للإنسان ، الكاسب : الجارح من السباع والطير .

ونلفت فى هذا المقام : إلى أن قرينة الاستعارة الأصلية مثل قرينة التبعية ، فتارة تكون لفظية ، وتارة تكون حالية ، غير أن الغالب الكثير فى الاستعارةالتبعية : فى الفعل ، وفى الصفات المشتقة : أن تكون القرينة هى نسبة الفعل أو المشتق للفاعل ، أو إلى المفعول ، أو إلى نائب الفاعل .. وإن شئت أمثلة فوق الذى مرّ بك سابقا ، فإليك :

قال الله تعالى : ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ (الأعراف : ١٥٤) ..

إذا تأملنا الآية الكريمة : وجدنا أن فى قوله : « سكت » استعارة ، والقرينة هى « الغضب » ، وهو فاعل للفعل الذى جرت فيه الاستعارة ، ذلك لأن السكوت بمعناه الحقيقى ، لا ينسب إلى الغضب ، فيكون إسناد الفعل « سكت » إلى الفاعل : « الغضب » : غير صحيح ، ولذا فلابدّ أن يراد من السكوت : معنى يناسب الغضب ، وهو الانتهاء .. فيقال : شبه انتهاء الغضب : بالسكوت ، بجامع الهدوء المترتب على كل منهما ، ثم استعير السكوت : للانتهاء من الغضب ، ثم اشتق من السكوت : « سكت » بمعنى : انتهى ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة هنا : هى الفاعل ..

وقال ابن المعتز يمدح أباه :

جمع الحق لنا فى إمـــام قتل البخل وأحيا السماحا

الاستعارة فى لفظ « قتل » ، وفى كلمة : « أحيا » ، والقرينة على الأولى قوله : « البخل » ، وهو مفعول للفعل : « قتل » ، وعلى الثانية قوله : « السماح » بمعنى الجود ، وهو مفعول للفعل : « أحيا » ..

ومعلوم أن إيقاع « القتل والإحياء » على البخل والسماح : لا يسوغ ، لأنهما لا يقعان إلا على ذى روح ، والسماح والبخل ، ليسا كذلك ، فلابد أن يراد من القتل والإحياء : معنى يناسب المقام ، ويمكن أن يقع على المفعول

فى كل منهما .. وعلى هذا ، فالمقصود بالقتل هنا : الإزالة ، وهو معنى يناسب البخل ، والمقصود بالإحياء هنا : الإكثار والذيوع ، وهو معنى يناسب السماح ، بمعنى الجود .. والقرينة هى المفعول به ، ولا يخفى عليك إجراء الاستعارة ..

وقال تعالى : ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ .. (التوبة : ٣٤) ..

التبشير بمعناه الحقيقى هو : الإخبار بما يسر ، بحيث ينعكس ذلك على بشرة الإنسان ، ويرتسم فى محيّاه ، وهو بهذا المفهوم : لا يتعدى إلى العذاب ، وهذا دليل على أن المراد بالفعل بشرّ » : معنى يناسب العذاب ، وهو « الإنذار » أى الإخبار بما يسوء ، فيكون فى لفظة « بشّر » : استعارة ، ويقال فى إجرائها : نزل التضاد بين التبشير والإنذار منزلة التناسب بينهما ، فشبه الإنذار : بالتبشير ، بجامع السرور المترتب على كل منهما – تحقيقا فى التبشير ، وتنزيلا فى الإنذار – ثم اشتق من التبشير بمعنى الإنذار : بشرهم بمعنى أنذرهم ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية .. والقرينة هى « عذاب » وهو مجرور بالياء ، ومتعلق بالفعل الذى وقعت فيه الاستعارة .

وبعد : فمن هذا العرض السابق : يتبين لنا أهمية القرينة ، ويبرز دورها المؤثر فى تجلية الاستعارة ، وكشف المراد منها ، فهى من الاستعارة : كأداة التشبيه من التشبيه ، وإذا انتفت من الاستعارة ، ولم تدل عليها حال : انتفى أثرها : وهو المنع من إرادة المعنى الحقيقى ، وتعيين المعنى المراد ، وحينئذ ينصرف اللفظ إلى معناه الحقيقى ، لفقدان القرينة التى تعتبر شرطا فى تحقق الاستعارة .

نماذج من روائع الاستعارات

الاستعارة كالتشبيه ، منها النازل والصاعد ، والمتسامى والهابط ، والقريب والبعيد ، والمبتذل والغريب ، فهى تتفاوت فى الأبلغية تفاوتا ، لا يُعلم مداه ، مثلها فى ذلك مثل التشبيه ، لأنها مبنية عليه ، متفرعة عنه ، موصولة بوصلة ، متأثرة بمدّه وحسره ، وإن كانت – كما قلنا – تتيه عليه بلاغة ، وتزهو بيانا وطلاوة ، لأنها تبدأ حيث يتوقف ، وتتحرك حيث ينتهى ، فهى الفضفاضة الواسعة الذيول ، وحديثها مهما طال فهو غير مملول ..

ونحن ننشر بين يديك – هنا – صفحة مشرقة السناء ، باهرة الضياء ، معطرة الأفياء ، تبدو فيها الاستعارة متألقة تألق الصبح ، متموجة تموج البحر ، تنفث السحر ، وتنثر الشعر ، وتنطق بالجمال ..

وبادئ ذى بدء : نحب أن نقرر : أن الاستعارة الهابطة أو العامية : هى التى يدركها العامة ، أو الطبقات الدنيا من الناس ، لأن الجامع فيها أمر واضح ، يدخل فى مفهوم الطرفين (المشبه والمشبه به) ، وذلك كاستعارة الأسد للرجل الشجاع ، والبدر للمرأة ، والطيران للسرعة ، والسباحة للعدو .. وما إلى ذلك ..

أما الاستعارة الراقية العالية ، أو الخاصيّة ، والتى نقصدها – هنا – بالحديث : فهى تمثل لونا آخر ، وتحكى طبقة أخرى من البيان : إنها تلك التى لا يظفر بها إلا الفحول ، ممن ارتقوا فى درجات البلاغة صعودا ، ولا يتملاها إلا ذوو الأذهان الثاقبة ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة التى طوّعت لها الحكمة ، وأوتيت فصل الخطاب ..

وإليك شواهد تؤيد ما نقول :

قال الله تعالى ، يحكى عن زكريا – عليه السلام – :

﴿قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ..﴾ .. (مريم : ٤) ..

فإن أصل الاشتعال : يكون فى النار ، واستعماله مسندا إلى الرأس أبلغ ، ولا يخفى أن حقيقة الكلام : تعنى كثرة الشيب فى الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد سريعا : صارت فى الانتشار ، كاشتعال النار ..

ويلاحظ أن استعارة « الاشتعال » : لكثرة الشيب ، لون بيانى ، فيه قرب وابتذال ، بيد أنه قد انضم إلى تلك الاستعارة : تصرف آخر ، انتقلت بسببه الاستعارة ، من القرب إلى البعد ، ومن الابتذال إلى الغرابة ، فقد أسند الاشتعال إلى « الرأس » ، فأعلم – بذلك – أن الاشتعال قد غطاه ، وشمل كل جزء فيه .. ولو أنه صاغ العبارة ، فقال : اشتعل شيب الرأس ، أو اشتعل الشيب فى الرأس : لظلت الاستعارة على قربها وابتذالها ، لكن تصرف السياق الكريم بهذا الإسناد : هو الذى وشّ الاستعارة بهذا اللون الجميل من البعد والغرابة ..

ويشير الإمام عبد القاهر ، إلى هذه اللفتة القرآنية الذكية ، فيقول : « فإن قلت : فما السبب فى أن كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه : كان له الفضل ؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ قلت : لأنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس ، الذى هو أصل المعنى : الشمولَ والانتشار ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقربه ، وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شىء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به ، وهذا مالا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب فى الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ : أكثر من ظهوره فيه على الجملة[1] ..

ومثل هذه الاستعارة فى الحسن والبراعة ، والخلابة والبداعة : قول الشاعر « كثير عزة » :

---

(١) الدلائل ص ٧٥ .

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت إلى دهم المهارى رحالنا فلم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح[1]

وللوهلة الأولى : قد تبدو المعانى فى الأبيات : بسيطة ساذجة ، وتظهر الاستعارة ، قريبة عامية ، خالية مما يضفى عليها الجمال والرونق ، لكن النظرة المتأملة المتدبرة للأبيات : تمنح الصورة بعدا أكبر ، وغورا أعمق ، وامتدادا أشمل ، بحيث تتراءى البلاغة من خلال النص ، ويلمع سناها متوهجا ، بما أُدخل على الأبيات من صنعة ، وما أُعمل فيها من نقش ، وبيان ذلك :

أن قوله : « وسالت بأعناق المطى الأباطح » : يتضمن شاهدا بلاغيا ، يأخذ بالألباب ، حيث إن فيه استعارة بارعة ، نجريها على النحو التالى : فقد شبه سير المطى فى الأباطح : بسيلان الماء فيها ، بجامع قطع المسافة بسرعة ، فى لين وسلاسة ، ثم استعار سيلان الماء : للسير اللين السّلس ، ثم اشتق منه : سالت ، بمعنى سارت سيرا لينا سلسا ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ..

والاستعارة بهذا : قد تبدو قريبة ، يدركها العامة والخاصة على حد سواء .. وهذا التصور يمكن أن يتم ، لو أن الشاعر قال : « وسالت الإبل فى الأباطح » .. بيد أنه قد تصرف فيها بحذقه ومهارته ، وأكسبها الدقة بصناعته ، حتى انتقلت من القرب إلى البعد ، ومن وهدة الابتذال ، إلى أبعد منازل الاكتمال .. فقد أسند « الناظم » الفعل المستعار ، وهو « سالت » إلى الأباطح دون المطى الذى حقه أن يُسند إليه .. وإسناد « سالت » إلى « الأباطح » مجاز عقلى ، من إسناد ما للحال إلى المحل ، للإشعار بكثرة المطى ، وأنها قد ملأت الأباطح ، حتى ليُخيّل للرائى : أن الأباطح هى التى تسير .. وبإضافة هذا التجوّز إلى الاستعارة القريبة ، ثم تعدية الفعل بالباء ، ثم إدخال « الأعناق »

(١) دهم : جمع أدهم وهو الأسود ، المهارى : الإبل نسبة إلى مهرة من عرب اليمن وكان لا يقوم لها شىء فى السرعة ، لم ينظر : لم ينتظر ، الأباطح : جمع إبطح وهو مسيل الماء فيه دقائق الحصى ..

فى السير ، لأن السرعة والبطء فى سير الأبل : يظهران غالبا فى الأعناق ، إذ المراد هو : « وسالت الأباطح متلبسة بأعناق المطى .. » ، وذلك يتضمن أن الأعناق سائلة .. بكل ما ذكرنا من ألوان الصنعة : بدت الاستعارة خاصية غريبة ، بعد أن كانت عامية قريبة ..

وقال الشاعر :

فرعاء إن نهضت لحاجتها القضيب وأبطأ الدعص[1]

فقد شبه قامة هذه الحسناء : بالقضيب ، بجامع الاعتدال والدقة ، ثم استعار القضيب : للقامة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وكذلك قد شبه ردفها (عجيزتها) : بكثيب الرمل (الدعص) ، بجامع الضخامة ، ثم استعار الدِّعص للردف ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .. والنظرة العاجلة : تقضى بأن تكون هاتان الاستعارتان قريبتين ، لأن الجامع فيهما ظاهر قريب ، لكن الشاعر الحاذق : نزع عنهما وصف الابتذال ، بما أدخله عليهما من اللطافة والصنعة ، وما وشاهما به من حسن نقش ، وبداعة رواء ، فقد وصف « القضيب » بالعجلة ، كناية عن دقته وخفة حركته ، ووصف « الدعص » بالبطء ، كناية عن ضخامته وثقله ، وبذلك غيرّ من صورتهما ، فتحولا وانتقلا من القرب إلى البعد ..

---

(١) فرعاء : طويلة ، القضيب : الغصن ، الدِّعص : بكسر الدال وسكون العين : قطعة الرمل المستديرة ..

الاستعارة المكنية

عرف جمهور البيانيين «الاستعارة المكنية»، فقالوا: «هى لفظ المشبه به المحذوف، المستعار فى النفس للمشبه، المدلول عليه بإثبات شىء من لوازمه للمشبه».

وقد استندوا فى مذهبهم هذا ، إلى ما ارتآه « الزمخشرى » فى قوله تعالى : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ (البقرة: ٢٦–٢٧).. حيث قال : فإن قلت : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل ، على سبيل الاستعارة ، لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها ، أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شىء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحو ذلك قولك : « عالم يغترف منه الناس »[1] .

أما الخطيب القزوينى : فإننا نجده قد تأثر – فى الاستعارة المكنية – بالإمام عبد القاهرة ، واستفاد من إشاراته ، بل وتابعه فى طريقته ، فقد قال تعليقا على بيت « لبيد العامرى » فى معلقته :

وغداة ريـح قد كشفت وقرةٍ إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

(الغداة : ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، القِرة : بكسر القاف وتشديد الراء : ما يصيب الإنسان من القُرة بضم القاف وهو البرد ، الشمال : ريح تهب من الشمال ، زمانها : مسارها ..) ..

قال القزوينى : « فإنه قد جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حسا أو عقلا ، تجرى اليد عليه ، كإجراء الأسد على الرجل الشجاع ، والصراط على ملة الإسلام ، ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرة على حكم طبيعتها فى

---

(١) الكشاف ١/ ٥٧ .

التصريف : بالإنسان المصرف لما زمامه بيده ، أثبت لها يدا على سبيل التخييل ، مبالغة فى تشبيهها به ، وحكم الزمام فى استعارته للقرة : حكم اليد فى استعارتها للشمال ، فجعل للقرة زماما ، ليكون أتم فى إثباتها مصرفة ، كما جعل للشمال يدا ، ليكون أبلغ فى تصييرها مصرفة ، فوفى المبالغة حقها من الطرفين » ..[١] .

وتعليق الخطيب هذا: يستقى من ورد عبدالقاهر، فى تعليقه على البيت السابق ، حيث يقول : « وذلك أنه جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء «الأسد والسيف» على الرجل، فى قولك : انبرى لى أسد يزأر ، وسللت سيفا على العدو لا يُفل .. وحكم الزمام فى استعارته للغداة: حكم اليد فى استعارتها للشمال، إذ ليس هناك مشار إليه ، يكون الزمام كناية عنه، ولكنه وفى المبالغة شرطها من الطرفين ، فجعل للغداة زماما ، ليكون أتم فى إثباتها مصرّفة ، كما جعل للشمال يدا ، ليكون أبلغ فى تصييرها مصرِّفة .. »[٢]

ومن هنا تسنى للخطيب القزوينى : أن يحدد مفهوم الاستعارة المكنية ، فعرّفها بأنها :

« التشبيه المضمر فى النفس ، المتروك أركانه سوى المشبه ، المدلول عليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه » ..

وطريقة إجراء الاستعارة فى بيت « لبيد » السابق ، على رأى الجمهور أن يقال : « بيد الشمال » شبه الشمال فى تصريفها للبرد ، بإنسان قد أخذ الشىء بيده ، يصرفه كيف شاء ، ثم استعار المشبه به للمشبه ، ثم حذف ورمز له بشىء من لوازمة ، وهو اليد ، على سبيل الاستعارة المكنية ، وإثبات اليد للشمال « استعارة تخييلية » وهى قرينة المكنية .. وفى « زمامها » : شبه « القرّة » فى تأثيرها وانقيادها للريح الشمالية : بدابة ذلول ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو الزمام ..

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٣/ ١٥٥

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٤

وأما على مذهب الخطيب ، فيقال : « بيد الشمال » : شبه الشاعر فى نفسه ، ريح الشمال فى تصريفها للقرة ، على حكم طبيعتها : بالإنسان المصرّف لما زمامه بيده ، ودل على هذا التشبيه : بإثبات لازم المشبه به ، وهو اليد ، للمشبه ، وهو القرة ، على طريق الاستعارة بالكناية ، وإثبات اليد للشمال : « استعارة تخييلية » ، وهى قرينة المكنية .

وفى قوله « زمامها » : شبه الشاعر فى نفسه « القرة » وهو الضمير فى « زمامها » العائد على القرة : بالدابة الذلول ، ودل على التشبيه بإثبات لازم المشبه به ، وهو الزمام ، للمشبه ، وهو القرة ، على سبيل الاستعارة المكنية ، وإثبات الزمام للقرة : « استعارة تخييلية » وهى قرينة المكنية ..

وعلى هذا : فكل استعارة مكنية : قرينتها استعارة تخييلية .. فهما متلازمان لاتنفك إحداهما عن الأخرى، وذلك عند الخطيب والجمهور.. وبالمقارنة بين المذهبين: مذهب الخطيب ومذهب الجمهور، يمكننا أن نقف على الأمور التالية :

أن الاستعارة على مذهب الخطيب : تخرج عن المجاز اللغوى ، فإن تسمية التشبيه المضمر فى النفس استعارة : خال من المناسبة ، لأن التشبيه المذكور فعل من أفعال النفس ، والاستعارة هى اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له ..

أما تسميتها كناية أو مكنية : فلأن التشبيه مضمر فى النفس ، وقد كنّى عنه ، ورمز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه .. وعلى ذلك فتسميتها استعارة لا يخلو من تسامح ..

أما على مذهب الجمهور : فالتسمية فى موضعها ، إذ عليه تكون الاستعارة بأقسامها المختلفة – عدا التخييلية – : هى لفظ المشبه به ، المستعمل فى المشبه ، والمصرح به فى التصريحية ، والمضمر والمكنى عنه فى المكنية ..

أمثلة للاستعارة المكنيـة
على مذهب الجمهـور

قلنا : إن الجمهور يذهب إلى أن الاستعارة المكنية هى : « لفظ المشبه به المحذوف ، المستعار فى النفس للمشبه ، المرموز إليه بإثبات لازمه للمشبه » ومثال ذلك قول الله جل ثناؤه :

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ..﴾ .. (الإسراء : ٢٤) ..

فقد شبه الذل : بطائر ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به ، وهو « الطائر » ، للدلالة على المشبه ، وهو « الذل » ، ثم حذف الطائر ، ودل عليه بإثبات لازمه ، وهو « الجناح » للذل .. فالاستعارة بالكناية فى الآية هى : لفظ الطائر المحذوف ، والقرينة عليها هى : إثبات الجناح للذل ...

وقول تأبط شرا :

إذا هـزه فى عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك[1]

ومعنى البيت : أن المنايا تستبشر فرحا وسرورا ، وتتلألأ نواجذها بشرا وحبورا ، عندما يهوى بسيفه على عدوه ، لأنها ستظفر به حينذاك . فقد شبه الشاعر المنايا : بالإنسان ، ثم استعار فى نفسه لفظ « الإنسان » للمنايا ، ثم حذفه ودل عليه بإثبات لازمه ، وهو « الأفواه والنواجذ » ، للمنايا .. فالاستعارة بالكناية هى : لفظ الإنسان المحذوف ، والقرينة على الاستعارة هى : إثبات الأفواه والنواجذ للمنايا ..

---

(١) القِرن بكسر القاف : نظيرك فى الشجاعة ، تهللت : لاحت من البشر والسرور ، النواجذ : الأنياب ..

ومن إبداعات الشاعر : أنه لما جعل « المنايا » تضحك : أثبت لها الأفواه والنواجذ ، التى يكون بها الضحك ...

وقول الله جل جلاله :

﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح ..﴾ .. (الأعراف : ١٥٤) .. فقد شبه الغضب : بإنسان ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به ، وهو « الإنسان » ، للغضب ، ثم حذف ، ودل عليه بشىء من لوازمه ، وهو « السكوت » ، للغضب ، والقرينة : إسناد الفعل « سكت » : للغضب .

ومن الشواهد الذائعة فى هذا الباب : قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقد شبه فى نفسه « المنية » : بالسبع ، حيث إن كلا منهما يغتال ، قهرا وغلبة ، من غير تفرقة بين نفاع وضرار ، ثم استعار فى نفسه السبع « للمنية » ، ثم حذف السبع ، ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو « الأظفار » ، وإثبات الأظفار للضمير العائد على المنية : تخييل ، أو استعارة تخييلية ، وهى قرينة المكنية ...

أما على **مذهب الخطيب القزوينى** : فالأمثلة السابقة ذاتها : تصلح أن تكون شواهد للاستعارة بالكناية ، مع ملاحظة وجود التفاوت بين المذهبين والذى علمته آنفا ، وقد مرّ بك إجراء الاستعارة المكنية ، على رأى الخطيب ، فى قول « لبيد » السابق :

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فارجع إليه إن شئت ..

الاطلاق والتجريد والترشيح فى المكنية

القرينة مطلقا : من تمام الاستعارة ومكملاتها ، سواء كانت الاستعارة تصريحية أو مكنية ، غير أن القرينة فى المكنية : تكون عادة من ملائمات المشبه به المحذوف ، وكما أن الإطلاق والتجريد والترشيح : ثلاثتها يمكن أن تجرى فى التصريحية – على نحو ما علمت سلفا – فإنها أيضا : يصح أن تتلبس بالاستعارة المكنية ، فتنقسم باعتبار ذكر الملائم أو عدمه : إلى ثلاثة أقسام ، هى : (مطلقة ، ومرشحة ، ومجردة)

١ – الاستعارة المكنية المطلقة :

ويراد بها : كل استعارة مكنية لم تقترن بمعنى من المعانى التى تلائم المشبه به أو المشبه ..

وذلك كقول حسان بن ثابت : يهجو أبا سفيان :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

(العبد : يريد به والد أبى سفيان ، وكانت أمه أم ولد) فقد شبه المجد بالبعير ، ثم حذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وهو « السنام » ، وإثبات السنام تخييل ، وهو قرينة المكنية ، والبيت خال من أى معنى يلائم المشبه به سوى القرينة ، كما أنه ليس هنا معنى يلائم المشبه ، فتكون الاستعارة مطلقة ..

٢ – الاستعارة المكنية المرشحة :

ويراد بها : كل استعارة بالكناية ، قرنت بمعنى يلائم المشبه به ، بعد استيفاء القرينة ..

وذلك كقول الشاعر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا فلسان حـــالى بالشكاية أنطـق

فقد شبه الحال : بإنسان ، وإثبات اللسان للحال تخييل ، وهو قرينة المكنية ، ثم تأتى كلمة « أنطق » ترشيحا ، لأنها من ملائمات المشبه به ، وهو الإنسان ، وقد جاءت بعد استيفاء الاستعارة قرينها ..

وكقول البحترى :

وأرى المنايا إن رأت بك شيبة جعلتك مرمـــى نبلها المتواتـــر

فقد شبه المنايا (أى الضمير العائد عليها فى رأت) : بإنسان ، وإثبات الرؤيا للمنايا : تخييل ، وهو قرينة المكنية ، وقوله : « جعلتك مرمى نبلها » ترشيح ، لأنه معنى يلائم المشبه به ، وقد جاء بعد استيفاء القرينة ..

٣ - الاستعارة المكنية المجردة :

وهى كل استعارة مكنية : تقترن بمعنى من المعانى التى تلائم المشبه .. وهذا النوع : لم يعثروا له على مثال من كلام العرب ، ولذلك فقد مثّل له علماء البيان بقولهم : « لسان الحال الراهنة دلّ على كذا » و « أظفار المنية العامة قصدت فلانا » .. فلفظ « الراهنة » ملائم للمشبه ، وهو « الحال » ، وكذا لفظ « العامة » : ملائم للمشبه ، وهو « المنية » ..

ويبدو أن انعدام أمثلة المكنية المجردة ، ووفرة الأمثلة فى المرشحة والمطلقة : أمران يتطلبهما الحفاظ على مستوى الاستعارة المكنية من حيث الأبلغية ، فإن أسلوبها – فى مجريات البلاغة – أقوى من أسلوب الاستعارة التصريحية ، لما يتخلله من محاسن وصور ، وما يتبعه من إبداعات ومشخصات ، تأخذ بالألباب .. والتجريد – بمفهومه البلاغى – يضيق من هذه الدائرة الواسعة للاستعارة المكنية ، ويلقى بظلاله على الآفاق الرحبة ، التى تصول فيها تراكيبها وتجول ، لأن ذكر ملائم المشبه : مضعف للاستعارة ، لأنه يقربها من التشبيه ، ويدنيها من الحقيقة ..

ردّ الاستعارة التبعية إلى المكنيـة

يجوز أن ترد كل استعارة تبعية: إلى استعارة مكنية، وذلك بأن تنقل الاستعارة من موطنها فى التبعية إلى قرينتها، فتصير مكنية. والمثال على ذلك قول الله تعالى:

﴿ولماسكت عن موسى الغضب﴾ : ففى قوله «سكت»: استعارة تبعية ، حيث شبه الانتهاء بالسكوت، بجامع الهدوء المترتب على كل منهما، ثم اشتق من السكوت بمعنى الانتهاء : «سكت» بمعنى: انتهى، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .. والقرينة هى : إسناد السكوت للغضب ، فإن الغضب لا يسكت ..

هذه الاستعارة: يمكن أن تحول إلى استعارة مكنية، وذلك إذا نقلنا الاستعارة من موطنها الأول: «سكت»: إلى القرينة وهى الغضب.. فيقال فى إجرائها: شبه الغضب: بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو سكت ، على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات السكوت للغضب تخييل، وهو قرينة المكنية..

ويقول الله عز وجل :﴿إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ..﴾ (الحاقة : ١١).

ففى قوله : « طغى » : استعارة تبعية ، حيث شبه كثرة الماء : بالطغيان ، بجامع العلو ومجاوزة الحد فى كل ، ثم استعار الطغيان لزيادة الماء وكثرته ، واشتق منه : « طغى » بمعنى : كثر وزاد ، على سبيل الاستعارة التبعية .. والقرينة : إسناد الطغيان للماء ، والماء لا يطغى ، وإنما يزيد ويكثر ..

ويجوز أن تتحول هذه الاستعارة التصريحية التبعية : إلى استعارة مكنية ، إذا نقلنا الاستعارة من موطنها طغى » : إلى قرينتها وهى « الماء » ، فيقال فى إجرائها : شبه الماء بإنسان ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من توابعه وهو « طغى » ، وإثبات الطغيان للماء تخييل ، وهو قرينة المكنية ..

وبهذا يمكن ردّ كل استعارة تبعية إلى مكنية ، وإذا أجريت مكنية فلا تجرى استعارة تبعية ، لأن القرينة حينئذ مستعملة فى حقيقتها ..

المجاز المرسل وعلاقاته

يمثل المجاز المرسل : الشق الثانى للمجاز اللغوى ، بعد شقه الأول المتمثل فى الاستعارة .. وقد حدد البيانيون مفهومه البلاغى ، فقالوا فى تعريفه : إنه : « اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة .. » ، ومن ثم تخرج الاستعارة ، لأنها مجاز لغوى علاقته : المشابهة – كما عرفنا – وبذلك ندرك سرّ تسميته : « مجازا مرسلا » ، لأن العلاقة فيه ، ليست محصورة فى واحدة بعينها ، وإنما أطلقت وأرسلت ، وأصبحت تشمل أكثر من جهة بيانية ، ولذلك سماه بعضهم : « المجاز المطلق » ..

علاقات المجاز المرسل :

تنوعت علاقات المجاز المرسل ، وتعددت وتباينت ، وهى فى مجموعها : تؤدى أغراضا بلاغية ، يستقيم بها الأسلوب ، ويرتفع بها شأنه ، وتمتع بتأثيرها البيانى والنفسى : القارئ والمتلقى على حد سواء ..

وأهم علاقات المجاز المرسل :

١ – السببية : وهى أن يكون اللفظ المذكور سببا فى المعنى المراد .. وذلك كقوله تعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ (الفتح : ١٠) .. فالمراد من اليد هنا : القدرة ، إذ هى سبب فيها .. وهذا مذهب الخلف فى الآية ، أما السلف ، فيأخذون النص على ظاهره ، ويقولون : لله يد تليق به ولا نعرفها ، وهو الرأى الأصوب والأدق ، حتى لا نتورط فيما يسمى بالتعطيل والتجسيم ، – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا –

وكقول الله الأقدس : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ .. (الشورى : ٤٠) .. فقد سمى عقوبة السيئة سيئة ، لأنها (أى

السيئة) سبب فى الجزاء .. وفى التعبير عن الجزاء ، بلفظ : « سيئة » لفتة بارعة ، لأنه يتضمن دعوة إلى العفو والصفح ، ويدعو إلى التنفير من العقوبة ، لأنها فى ظاهرها سيئة .. كما أن فى التعبير كذلك :

إشارة خاطفة ، إلى أن الجزاء سيكون رادعا ، لدرجة أنه يسوء من ينزل به ، فهو فى شدته وعنفه وأثره : لا يقل وطأة عن الذنب الأول .. وكقول الشاعر :

سأشكر عمرا ما تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت

فالمراد بالأيادى هنا : النعم ، وإنما عبر بالأيدى ، لأنها السبب فى تحصيلها والتمتع بها ..

٢ – المسببية : وهى أن يكون اللفظ المذكور مسببا عن المعنى المراد : وذلك كقول الله جل جلاله : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ..﴾ (آل عمران : ١٣٣) .. فقد أطلق المغفرة ، وأراد بها التوبة ، لأن المغفرة مسببة عنها ، والتوبة سبب فيها ..

وكقول الله سبحانه : ﴿هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ..﴾ (غافر : ١٣) .. فقد عبر بالرزق ، وأراد المطر ، لأن الرزق مسبب عنه .. وفى التعبير بالرزق عن المطر : ما يوحى بأن الذى ينزل من السماء هو الرزق ذاته ، وليس المطر ، وكأن المراحل الفاصلة بينهما قد طويت ، ولم يعد هناك زمن بين نزول المطر والثمار المترتبة عليه .. فتأمل – معى – هذه الدقة البالغة فى التراكيب !!

وكقوله تعالى : ﴿وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأ كفر بالله ..﴾ (غافر : ٤١ – ٤٢) .. والحقيقة أن هؤلاء الناس لم يدعوا مؤمن آل فرعون : إلى النار ، بل دعوه إلى الكفر ، الذى يقود إلى النار ، فالنار مسببة عنه ، وهو سبب فيها ، فعبّر بالمسبب ، وأراد السبب ..

٣ – الكلية : وهى : أن يكون اللفظ المذكور كلاً للمعنى المراد .. كقوله تعالى حكاية عن نوح ، عليه السلام – : ﴿وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ..﴾ (نوح : ٧) ..

فقوم نوح : لم يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ، لاستحالة ذلك ، وإنما وضعوا الأنامل ، أو أطراف الأصابع ، فقد عبر بالكل وهو الأصابع ، وأراد الجزء ، وهو الأنامل ، وكأنهم من فرط كراهيتهم للدعوة وصاحبها – عليه السلام – حاولوا أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ، حتى لا يكون ثمة منفذ ، يستمعون من خلاله إلى ما يخبرهم به هذا النبى الكريم ..

فالتعبير – كما يبدو – لا يخلو من مبالغة جميلة تأخذ بالألباب .. وكقول الله تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا﴾ .. (المائدة : ٣٨) .. فلا يراد من اليد هنا : اليد كلها ، وإنما يراد منها الكف إلى حدود الرسغ ، كما نص على ذلك الفقهاء ، باستثناء أهل الظاهر ، فقد أطلق الكل ، وأراد الجزء .

وكقوله تعالى : ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ .. (يوسف : ٩٩) .. فأبوا يوسف – يعقوب وزوجه – وإخوة يوسف : لم يدخلوا مصر كلها ، وإنما دخلوا جزءا منها ..

٤ – الجزئية : وهى : أن يكون اللفظ المذكور جزءًا من المعنى المقصود . وذلك كقول الشاعر « الأعشى » ، يفتخر بقومه :

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعرفوا أننـــا بكر فينصرفوا

فهو يقول : إن قومه قد كشفوا عن رءوسهم ، وألقوا الخوذات ، واستعدوا للنزال .. وتلك سمة الشجاعة ، وذروة الفدائية .. فقد أطلق « الجماجم » ، وهى الجزء ، وأراد الكل ، وهو : الرءوس ، لأن الجماجم : جمع جمجمة ، وهى وسط الرأس ..

وكقوله تعالى : ﴿ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ..﴾ (النساء : ٩٢) .. فالرقبة وحدها : لا تحرّر ، وإنما الذى يحرر الذات ، فأطلق الجزء وهو الرقبة ، وأراد الكل وهو العبد .. ولعل السر فى التعبير بالرقبة – والله أعلم – أنه منها يمسك الشىء ويتناول ، فمن قبض عليها فقد قبض على الذات ، ومن أطلقها فقد أطلق الذات ..

٥ – المحلية : وهى تسمية الشىء باسم محله ..

وذلك كقوله تعالى : ﴿وأسأل القرية التى كنا فيها ..﴾ .. (يوسف : ٨٢).. فالقرية لا يُتوجه إليها بالسؤال ، لأنها جماد ، وإنما يُسأل أهلها الذين يسكنون فيها ، فالقرية مكان لمن يُسأل ، فعبّر بالمكان وأراد المكين ، فالعلاقة هنا : المحلية ..

وكقوله تعالى : ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ..﴾ .. (العلق : ١٤ – ١٧) .. فقد أطلق « النادى » وهو مكان اجتماع القوم ، وأراد الحال فيه ، والمراد بهم المشركون اللئام ، الذين كانوا يعادون النبى الكريم ، ويتندرون به ... فالعلاقة : المحلية .

٦ – الحالية : وهى تسمية الشىء باسم الحال فيه ..

كقوله تعالى : ﴿إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ..﴾ .. (الانفطار : ١٣ – ١٤) ..

فالمراد من النعيم : الجنة ، ومن الجحيم : النار .. لأن الأبرار فى مكان يشتمل على النعيم ، والفجار فى مكان يشتمل على الجحيم ، فالنعيم حال فى الجنة ، والجحيم حال فى النار .. والعلاقة هنا : الحالية ..

وكقوله تعالى : ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ..﴾ .. (آل عمران : ١٠٧) .. فقد عبّر بالرحمة ، وأراد الجنة ، لأن

المؤمنين لا يُخلدون فى الرحمة ، بل فى مكان يشتمل عليها وهو الجنة ، فالرحمة حال ، والجنة محل ، والعلاقة الحالية ..

هذا ، وقد اجتمعت الحالية والمحلية فى قوله تعالى : ﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ .. (الأعراف : ٣١) ... فعبر عن الملابس بالزينة ، لأن الزينة حالة فيها ، وهى محل لها ، فالعلاقة الحالية ، لأن الزينة لا تؤخذ ... والمراد من المسجد : الصلاة ، فأطلق المحل ، « المسجد » وأراد الحال « الصلاة » ، فالعلاقة المحلية ..

٧ – اعتبار ما يكون : وهو تسمية الشىء بما يصير إليه ..

كقوله تعالى : ﴿رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم .. ﴾ .. (الصافات : ١٠١) .. فالمراد من الغلام الحليم : الطفل النابه « إسماعيل » ، والطفل حين يولد ، لا يوصف بأنه غلام حليم ، لأنه لا يدرك شيئا ، فإطلاق لفظ (الغلام الحليم) عليه : إنما هو باعتبار ما يؤول إليه أمره مستقبلا ..

وكقول الله تعالى يحكى عن سيدنا نوح : ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ..﴾ .. (نوح : ٢٦ – ٢٧) ... فالمولود حين يولد : لا يتعت بأنه فاجر كافر ، فمقولة نوح – عليه السلام – : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا .. » : إنما هى باعتبار ما يؤول إليه حالهم فى مقتبل الزمان ، أى أنهم سيصيرون فجرة كفرة – عياذا بالله من السوء – .

٨ – الآلية : ويراد بها : إطلاق اسم الآلة على الأثر الناتج عنه .. وذلك كقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ..﴾ .. (إبراهيم : ٤) .. ومعنى قوله : « بلسان قومه » : أى بلغة قومه ، التى بها يتحاورون ويتخاطبون ويتآنسون ، إذ اللغة الواحدة : أدعى إلى التقارب والتلاطف والتوادد ، فقد أطلق اللسان ، وأراد اللغة ، لأن اللسان آلتها .. فالعلاقة هى : الآلية .

وكقوله تعالى : ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ..﴾ (الأنبياء : ٦١) .. والمعنى : أن قوم إبراهيم : طلبوا الإتيان به – بعد أن حطم أصنامهم – على مرأى من الناس ومسمع ، بحيث تبصره جماهيرهم الغاضبة ، لتكون الإدانة أتم ، والاتهام ألزم ... فقولهم : « على أعين الناس » : فيه مجاز مرسل علاقته الآلية ، لأنهم أطلقوا الأعين ، وأرادوا منها الرؤية ، والعين آلة الرؤية والمشاهدة ...

٩ – الاشتقاق : وهو عند السيوطى : إقامة صيغة مقام أخرى .. وقد مثل له بقوله جل من قائل : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ..﴾ .. (الأنفال : ٩ ، ١٠) ..

فالمصدر وهو « البشرى » : أقيم فى الآية الكريمة ، مقام اسم المفعول ، وهو « المبشّر به » ، وذلك للمبالغة والتفخيم ، وكأن الإمداد أصبح هو البشرى ذاتها ، لأهميتها ، ومسيس الحاجة إليها ، وبخاصة والمسلمون يلقون عدوهم .. فالعلاقة هنا : الاشتقاق ...

بلاغة المجاز المرسل

قلنا : إن المجاز المرسل نوع من المجاز اللغوى ، والمجاز بوجه عام ، يوسع اللغة ويثريها ، ويغنيها وينميها ، وهو من ناحية أخرى : نوع من التفنن فى التعبير ، أضف إلى ذلك : ما يخلعه من مبالغة على المعنى ، وما يكسبه للأسلوب من إيجاز .. وقديما قالوا : « البلاغة الإيجاز » . ولعل الصور البلاغية البديعة : قد تراءت لك – من خلال ما تقدم من أمثلة وشواهد – مما يؤكد دور « المجاز المرسل » ، فى تخليق الأساليب ، وترنيق العبارة ، وإضفاء طابع الجزالة والفخامة على المعنى، حتى يبدو فى صورة قشيبة ، وهيئة طريفة ..

وإليك شواهد أخرى : تطلعك على ما للمجاز المرسل من بلاغة تهز النفوس ، وتأسر القلوب ، وتبهج الخواطر والأرواح ...

يقول الله عز وجل: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون..﴾.. (آل عمران : ١١٨) ..

هذه الآية الكريمة : توشت بمجازين مرسلين ، بعلاقتين مختلفتين ، وكل منهما يأخذ بالألباب ..

١ – فى قوله : ﴿قد بدت البغضاء من أفواهم ..﴾ ..

فالمجاز فى لفظ « البغضاء » ، والعلاقة السببية .. وإنما كان لفظ « البغضاء » مجازا مرسلا عن الكلمات الدالة على الكراهية : لأن البغضاء معنى من المعانى المكنونة فى القلوب ، وهى لا تبدو ولا تظهر من الأفواه ، وإنما الذى يبدو منها ، هو الكلام المترتب على البغضاء ، فقد أطلق السبب وهو البغضاء ، وأريد

منه المسبب ، وهو الكلمات الدالة على الكراهية ، والعلاقة : السببية .. والقرينة : قوله : ﴿بدت من أفواههم ..﴾ ..

وسر العدول عن الحقيقة إلى المجاز هنا : أنه أريد المبالغة فى الكلام الدال على العداوة ، وتصويره بصورة البغضاء ، للإشعار بأن الذى بدا من أفواههم هو ذات البغضاء ، على الرغم من محاولتهم إخفاءها فى صدورهم ، وذلك دليل على أنها قد تمكنت من قلوبهم ، وملأت نفوسهم ، حتى أبت إلا أن تفيض ، فتنحدر من ثنايا أفواههم ... وذلك هو تأويل قول البيانيين : « إن المجاز كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ، لأنه يؤكد المعنى ويقرره .. وهذه دعامة أولى تستند عليها بلاغة المجاز المرسل ..

أما الدعامة الثانية : فهى – هنا – تصوير المسبب بصورة السبب ، وإطلاق اسمه عليه ، وفى ذلك تنفير شديد من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة ..

وأما الدعامة الثالثة : فهى – هنا – الإيجاز البارع ، والبلاغة الإيجاز ..

٢ – فى قوله : ﴿وما تخفى صدورهم أكبر ..﴾ ..

فالمجاز فى لفظ « الصدور » ، والعلاقة : المحلية ، وإنما كانت « الصدور » مجازا مرسلا عن : القلوب ، لأن القلوب هى مجمع الأضغان ، ومحل الأحقاد.. فقد أطلق المحل ، وهو «الصدور» ، وأريد الحال ، وهو : « القلوب » ، والعلاقة : المحلية ، والقرينة : حالية ، يدل عليها السياق ... فأنت ترى المجاز : قد أكد المعنى وقواه ، فكأنه قيل : إن هذه القلوب قد تضخمت بما فيها من الكراهية ، حتى فاضت على الصدور فملأتها .. وهذا معنى أن المجاز كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ... كما أن تصوير الحال بصورة المحل ، وإطلاق اسمه عليه : تنبيه وأى تنبيه، على شدة عداوتهم للمسلمين، حتى لا ينخدعوا بهم ..

وقال الله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ..﴾ (الأنفال : ٦٠) ...

ففى كلمة « قوة » : مجاز مرسل ، علاقته المسببية ، حيث أطلقت « قوة » ، وأريد منها سببها ، وهو الأسلحة ، لأن القوة مترتبة على السلاح ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فالعلاقة هنا : المسببية ، والقرينة هى قوله « أعدوا » إذ أن الذى يعد : هو السلاح ، من الدبابات والطائرات والصواريخ ، وما إلى ذلك مما يندرج تحت مفهوم السلاح ، ويكون سببا للقوة ، ودعامة لها ...

وهكذا : يتبين أن المجاز المرسل : يؤكد المعنى المراد ويقويه ، فهو بمثابة دعوى الشيء بالبينة والبرهان ، كما أنه يصور المعنى المجازى المراد خير تصوير وأدقه ، وهو – أيضا – يؤدى المعنى بألفاظ أقل من الأسلوب الحقيقى ، وهذا هو الإيجاز ..

الاستعارة تفارق الكذب

بعض العلماء ينفى وقوع المجاز – ومنه الاستعارة – فى القرآن الكريم .. وقد ألمحنا إلى هذه القضية فى بحث « المجاز » .. ونحن هنا نشير إلى ضرورة التفريق بين الاستعارة والكذب ، حتى تندفع شبه هؤلاء العلماء ، ويبدو الصبح أبلج لذى عينين .. والنظرة الفاحصة والواثقة تؤكد أن هناك فرقا بين الاستعارة والكذب من وجهين :

الأول : أن الاستعارة مبنية على التأويل فى دعوى دخول المشبه فى جنس المشبه به ، وذلك أن المستعير يجعل أفراد المشبه قسمين : قسما متعارفا ، وقسما غير متعارف ، ويجعل الاستعارة من القسم الثانى .

أما الكذب فلا تأويل فيه ، لأن الكاذب يسوق كلامه مساق المسلمات ، ولا يظهر عليه أنه يتأول ..

الثانى : أنه لابد فى الاستعارة من قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى ، وتحتم إرادة غير الظاهر ، أما الكذب ، فلا قرينة فيه على إرادة خلاف الظاهر ، بل إن الكاذب يحاول جاهدا أن يروّج لكذبه ..

* * *

المجاز المركب

تعريفه :

هو اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ..

فهو لا يفترق عن المجاز المفرد إلا أنه فى جملة نقلت من معناها الأول إلى معنى جديد .. وهو غير المجاز العقلى (وسيأتى) ، لأن هذا الأخير يقع فى إسناد الفعل أو معناه إلى غير الفاعل الأصلى ، وقد يكون الفاعل مستعملا فى حقيقته ، وقد يكون الفعل كذلك ، ولكن المجاز المركب نقل للجملة برمتها ، واستعمال لها بطريقة أخرى .. وهو نوعان :

١ – إذا كانت العلاقة المشابهة فهو تمثيل ، أو استعارة تمثيلية ..

٢ – وإذا كانت العلاقة غير المشابهة : فهو المجاز المرسل المركب ، كقوله تعالى حكاية عن سليمان عليه صلاة الله وسلامه : ﴿مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ..﴾ .. (النمل : ٢٠) .. فالمراد بالاستفهام هنا : التعجب ، وهو نوع من الإنشاء ، والعلاقة أن الاستفهام يستلزم الجهل ، والجهل يستلزم التعجب ، فهو مجاز مركب ، من استعمال الدال على الملزوم فى اللازم ..

ومنه كل المركبات الإنشائية التى استعملت فى غير معناها الأصلى ، وكذلك الخبر المراد منه غير فائدة الحكم أو لازمها ..

ومن ذلك قول الشاعر :

هوای مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق (١)

---

(١) مصعد : ذاهب . جنيب : أسير .

فهذا التركيب موضوع للإخبار بكون (هواه) أى محبوبه مسافرا مع هذا الركب اليمنى ، فى حين أنه هو باق فى مكة محبوسا ، لكنه استعمله فى إظهار الحزن والتحسر على مفارقة الحبيب ، وعلى ما ابتلى من القيد ، وعدم فك الوثاق .. والاستعمال – كما يبدو – للتركيب كله ، لا لمفرد من مفرداته ، ولذلك كان المجاز فى المركب ، وهو مجاز مرسل علاقته اللزومية ..

الاستعارة التمثيلية

١ – قال الله تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ...﴾ .. (الإسراء : ٢٩) ..

٢ – وكتب سيدنا عثمان بن عفان إلى سيدنا على بن أبى طالب – رضى الله عنهما – حين أحيط به فى الدار : « أما بعد ، فقد جاوز الماء الزّبى ، وبلغ الحزام الطبيين ، وتجاوز الأمر بى قدره ، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه .

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فادركنى ولمـــا أمزق[1]

فى الآية الكريمة : نهى عن البخل ، جاء فى صورة تحذير للإنسان أن يجمع يده وعنقه فى غُل ، ونهى عن الإسراف ، جاء فى صورة تحذير للإنسان أن يمد يديه مدا متناهيا .. فقد شبهت هيئة البخيل بهيئة المغلول الذى لا يستطيع أن يمدّ يده إلى شىء ، ثم حذف المشبه ، وتنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، ثم استعير المركب الدال على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التمثيلية[2] .

وفى كتاب سيدنا عثمان : عدة تعبيرات ، معناها أن الخطب بلغ نهايته ، وجاوز حده : « جاوز الماء الزبى » . « بلغ الحزام الطبيين » .. « تجاوز الأمر بى قدره » .. ففى العبارتين الأولى والثانية : استعارتان ، لأن العلاقة بين معناهما الأصلى والمعنى المراد هو المشابهة ..

وتجرى الاستعارة فى المجاز الأول هكذا : شبهت الحال التى لا يمكن إصلاحها بحال الماء جاوز أعلى مكان ، بجامع مجاوزة الحد فى كل ، ثم حذف

---

(١) الزبى : جمع زُبية وهى مصيدة الأسد ، الطبيين : الضروع واحدها طُبى بضم الطاء .
(٢) يجوز أن يكون التعبير فى الآية من باب الكناية ..

المشبه ، وتنوسى التشبيه ، وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به ، ثم استعير التركيب الدال على مجاوزة الماء الحد ، للحالى التى بلغت نهاية السوء ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ..

ونلاحظ أن قوله تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة﴾ : لم يشتهر فى التعبير عن معنى البخل ، بخلاف مقولة سيدنا عثمان ، فإن : « جاوز الماء الزبى » : اشتهر ، وأصبح كالعلم لمجاوزة الأمور حده ، ولذلك خصوا الثانى باسم (المثل) مع أن كلا منهما يسمى « استعارة تمثيلية » .. وأما العبارة الأخيرة « جاوز الأمر بى قدره » : فليست من قبيل الاستعارة التمثيلية ..

تنبيهـــان :

١ – الفرق بين التشبيه التمثيلى والاستعارة التمثيلية : أن الأول من قبيل الحقيقة ، والثانية مجاز ، والأول لابد فيه من ذكر الطرفين ، وقد تذكر معه الأداة ، والثانية مبنية على تناسى التشبيه ، كما هو الشأن فى كل استعارة ، والأول قد يكون بين مفردين ، نحو : المنافق كالحرباء ، بخلاف الثانية ..

٢ – الاستعارة التمثيلية يمكن أن تعرف على الوجه التالى : « هى تركيب استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ..

هذا ، ولابدّ فى الاستعارة التمثيلية : أن يكون كل من المشبه والمشبه به صورة منتزعة من متعدد ، كما لاحظنا فى الأمثلة السابقة ..

* * *

الحقيقة العقليـة والمجـاز العقلى

الحقيقة فى اللغة : فعيلة بمعنى فاعل من حقّ الشيء : إذا ثبت فهو ثابت .. أو هى بمعنى مفعول ، من حققت الشيء إذا أثبته فهو مثبت . ثم نقل هذا المعنى إلى الكلمة الثابتة ، أو المثبتة فى مكانها الأصلى ، والتاء فيها للنقل من الوصفية إلى الاسمية ..

والحقيقة التى نحن بصددها ضربان : حقيقة لغوية ، وحقيقة من جهة قصد المتكلم (وهى الحقيقة العقلية) .. فإذا ما وصفنا كلمة مفردة ، بأنها حقيقة ، كما إذا أطلقنا لفظ « أسد » على الحيوان المعروف : كان ذلك الإطلاق حكما آتيا من ناحية اللغة ..

أما إذا وصفنا الجملة بالحقيقة ، فإن ذلك الوصف يأتى من جانب المعقول دون اللغة ، لأن أوصاف الجمل ومحاسنها ومساوئها ، لا يصح ردها إلى اللغة ، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم أو اسم إلى اسم ، وهذا شيء يحصل بقصد المتكلم ، فمثلا « نجح » لا يصح خبرا عن محمد فى قولك :

« محمد نجح » : بوضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات النجاح له فعلا ، وعلى هذا فليست هناك حقيقة لغوية فى الجمل ، وإنما هى مختصة بالمفردات ..

فالحقيقة اللغوية : هى الكلمة المستعملة فيما وضعت له ، أو اللفظة الثابتة فى معناها الأصلى الذى جرى به الاصطلاح فى التخاطب ..

أما الحقيقة العقلية : فهى إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر .. وما فى معنى الفعل هو : المصدر واسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة وأفعل التفضيل ..

ومعنى كون الإسناد إلى ما هو له : أن حقه أن يُسند إليه ، لأنه وصف له ،

وذلك كإسناد الفعل المبنى للفاعل إلى الفاعل ، فتقول : جرى الماء فى النهر ، وكإسناد الفعل المبنى للمفعول إلى المفعول ، فتقول فى : رضى فلان عيشته ، « رُضيت عيشته » بالبناء للمفعول ، وهكذا .. والإسناد – هنا – يشمل الإسناد الإيجابى والسلبى ، كقولك : جرى الماء فى النهر ، وما جرى فى الحقل ..

أقسام الحقيقة العقلية :

الذى يفهم من تعريف الحقيقة العقلية ، أنها تجىء فى صور أربع :

١ – ما يطابق الواقع والاعتقاد ، كقول الموحد : « شفى الله المريض » فإن شفاء المريض ليس فعلا إلا لله وحده ، على جهة الحقيقة ، والطبيب مجرد سبب عادى فقط ، ولكن الله – جل شأنه – أوجب الرجوع إليه ، فترك الأسباب معصية ، والاعتقاد فيها شرك ، والفعل لله وحده ..

٢ – ما يطابق الواقع دون الاعتقاد ، كقول شيوعى ملحد ، يخفى حقيقة حاله : « الله موجود » ، فهو لا يعتقد ذلك ، لأن شعاره وشعار أمثاله : « لا إله والحياة مادة » .. فقول الشيوعى الآنف الذكر ، مطابق للواقع ، بيد أنه لا يطابق اعتقاد الملاحدة ..

٣ – ما يطابق الاعتقاد دون الواقع ، كقول الملحد أيضا : « شفى الطبيب المريض » ، وعليه قول بعض الكفرة – كما حكاه القرآن – ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ .. فإن اعتقاد الكافرين فى مثل هذه الأفعال : أنها مسندة إلى ما هى له ، وإن كان الواقع أنها ليست كذلك ..

٤ – ما لا يطابق شيئا منهما، كالأقوال الكاذبة التى يكون المتكلم عالما بحالها دون المخاطب، كما تقول: سافر محمد، وأنت تعلم أنه لم يسافر، فهذه حقيقة كاذبة، فالأقوال الكاذبة حقيقة عقلية، ولو علم المخاطب بكذبها، لأن الفعل فيها مسند إلى ما هو له بحسب وضع اللغة، وبهذا تكون الحقيقة العقلية إما صادقة ، وإما كاذبة..

المجـاز العقلى

المجاز فى اللغة : اسم على وزن « مَفْعَل » بفتح فسكون ففتح ، مشتق من الجواز ، يقال : « جاز المكان يجوزه » إذا تعداه ، وأصله : « مَجْوَز » نقلت حركة حرف العلة إلى الساكن الصحيح قبلها ، فتحركت الواو بحسب الأصل ، وانفتح ما قبلها بحسب الآن ، فقلبت ألفا ، فصارت « مجازا » .. وإنما سمى المجاز « مجازا » : لأنهم جازوا به موضعه الأصلى ، أو جاز هو مكانه الذى وضع له أولا ..

والمجاز فى اصطلاح علماء البلاغة قسمان : لغوى ، وعقلى ، وقد سبق أن تحدثنا عن الأول منهما ، وهو اللغوى ، فماذا عن الثانى منهما وهو العقلى ؟

تعريفه : الذى يؤخذ من أقوال علماء البلاغة : أنهم سموه : « المجاز العقلى » أو « الحكمى » أو « المجاز فى الإسناد » ، وأيا ما كان فإنهم عرفوه بأنه : « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة صارفة للإسناد عن معناه الحقيقى ..

ومعنى كون الفعل يسند إلى غير ما هو له ، أنه ليس من حقه أن يسند إليه ، لأنه ليس وصفا له ، وهو يشمل إسناد الفعل المبنى للفاعل ، وما فى حكمه كاسم الفاعل ، إلى غير فاعله ، ويشمل أيضا إسناد الفعل المبنى للمفعول وما فى حكمه كاسم المفعول ، إلى غير نائب الفاعل ، مما له علاقة به كالفاعل والمصدر ونحوهما ، فإن هناك علاقة بين المسند إليه الحقيقى والمسند إليه المجازى — كما سنبين — .

والقرينة : هى التى تصرف الإسناد عما هو له ، إلى غير ما هو له ..

وإنما سمى هذا اللون من المجاز « عقليا » : لاستناده إلى العقل دون الوضع ،

لأن إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى فاعله ، أو غير فاعله : إنما هو شيء يحصل بقصد المتكلم ، دون واضع اللغة ، فلا يصير قولك : « صائم » خبرا عن قولك : « نهار العابد » مثلا بواضع اللغة ، بل بمن قصد إثبات الصيام للنهار ، على أنه خبر له .. أما الذى يعود إلى واضع اللغة ، فهو : أن الصيام يراد به الإمساك مطلقا ، وأن النهار ما قابل الليل ..

علاقات المجاز العقلى

للفعل ملابسات شتى ، فهو يلابس الفاعل من جهة صدوره منه ، كضرب ، أو قيامه به كفهم ومات ، ويلابس المفعول من جهة وقوعه عليه ، ويلابس المصدر لكونه جزء مفهومه ، ويلابس الزمان والمكان ، لأن كل حدث لابد له من زمان ومكان يقع فيهما ، ويلابس السبب نظرًا لوقوعه به ..

والمراد بالفاعل : ما كان فاعلا فى الأصل ، كالتمييز المحول عن الفاعل ، وما كان فاعلا فى الحال ..

والمراد بالمفعول : ما يعم ما يكون بواسطة حرف أو بلا واسطة .. والمراد بالسبب : مايعم السبب الآمر أو المؤثر أو الباعث .. فإذا ما وجدت هناك علاقة بين المسند إليه الحقيقى والمسند إليه المجازى ، كانت هذه العلاقة مسوغة لأسلوب المجاز العقلى .. ويمكن تحديد علاقات المجاز العقلى على النحو التالى :

١ – المفعولية : وفيها يسند الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، كقولك : « رضيت عيشة محمد » .. فقد أسندت فعلا مبنيا للمعلوم (حقه أن يُسند إلى فاعله الحقيقى) إلى المفعول به ، فإن العيشة مرضية لا راضية ، وحقيقة هذا الإسناد : رضى محمد عيشته .. ونظير هذا قوله تعالى : ﴿فهو فى عيشة راضية﴾ (الحاقة : ٢١) .. وحقيقته : فهو فى عيشة راض صاحبها عنها .. والعلاقة فى كل ذلك : مضاهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى فى ملابسة الفعل لأنه مفعول ..

ومن تلك العلاقة قول الحطيئة فى هجاء الزبرقان بن بدر :

دع المكـــارم لا ترحـل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

يريد : المطعوم المكسو ، فأسند المبنى للفاعل إلى ضمير المفعول ، على طريق المجاز العقلى الذى علاقته المفعولية ..

٢ – الفاعلية : وفيها يسند مابنى للمفعول إلى الفاعل ، كقوله تعالى : ﴿إنه كان وعده مأتيا﴾ .. (مريم : ٦١) .. وكقولهم : « سيل مفعَم » .. لأن الوعد آت ، والسيل مفعِم بكسر العين ، أى مالىء ، لا مفعم بفتحها أى مملوء .. وحقيقة الإسناد فى الآية الكريمة : إنه كان وعده آتيا صاحبه » .. أى يأتيه الوعد ..

والحقيقة أيضا : « واد مفعَم » بفتح العين ، أى يفعمه السيل ويملؤه ومنه قوله تعالى : ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورًا﴾ .. (الإسراء : ٤٥) .. وحقيقة الإسناد : حجابا مستورًا صاحبه به ، أى يستره الحجاب ..

فالعلاقة فى مثل هذه الشواهد : مضاهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى ، فى ملابسة الفعل له ، لأنه فاعله ، والمسند إليه الحقيقى هنا : هو نائب الفاعل ..

٣ – المصدرية : وفيها يسند الفعل إلى مصدره ، ومن هذا قول أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جدّ جدهم وفى الليلة الظلمـــاء يفتقد البدر

فقد أسند الفعل « جدّ » إلى مصدره « جدّهم » أى أجتهادهم ، وهو ليس بفاعله على الحقيقة ، بل الفاعل : الجاد نفسه ، واصله : جدّ الجادّ جدا ، ومن ذلك أيضًا قولهم : شعر شعره وسحر سحره ..

والعلاقة فى كل ذلك المصدرية .. أى مضاهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى فى ملابسة الفعل له لأنه مصدره ..

٤ – الزمانية : وفيها يسند الفعل المبنى للفاعل إلى زمانه ، كقوله تعالى : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ .. (المزمل : ١٧) ..

فقد أسند الفعل « يجعل » إلى ضمير اليوم ، وهو ليس فاعله الحقيقى ، بل هو زمن وقوعه فقط ، وحقيقة الإسناد : يجعل الله الولدان شيبا فيه ..

وكقوله تعالى : ﴿فذلك يومئذ يوم عسير، على الكافرين غير يسير﴾ .. (المدثر : ٩ – ١٠) .. فقد أسند ما حقه أن يُسند إلى الفاعل وهو عسير (صفة مشبهة) إلى ضمير اليوم ، وهو ليس بفاعل له ، بل هو زمن وقوعه كسابقه .. وحقيقة الإسناد : فذلك يومئذ يوم عسير هولُه فيه ، وغير يسير هولُه فيه .. ومنه قول الشاعر :

هى الأيام كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

فقد أسند فيه الفعل المبنى للفاعل إلى الزمن فى الشطر الثانى مرتين :

« سره زمن ساءته أزمان » .. والسرور على جهة الحقيقة لا يكون إلا من الله وحده ، وكذلك الإساءة ..

والعلاقة فى كل ذلك الزمانية : أى مضاهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى فى ملابسة الفعل ، لأنه زمانه ..

٥ – المكانية : وفيها يسند الفعل إلى مكانه ، كقوله تعالى : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها﴾ .. (الزلزلة : ١ – ٢) ..

وحقيقة الإسناد : وأخرج الله من الأرض أثقالها ..

وكقوله تعالى : ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا﴾ .. (القصص : ٥٧) .. فقد أسند ما حقه أن يسند إلى الفاعل إلى مكانه .. وحقيقة الإسناد : حرما آمنا أهله فيه .. وكقوله تعالى : ﴿تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ .. (النساء : ١٣) ..

فقد أسند ماحقه أن يسند إلى الفاعل ، وهو الفعل « تجرى » ، إلى ضمير الأنهار ، وهى أمكنة للمياه ، وليست هى الجارية ، بل الجارى ماؤها ..

ومن ذلك قول الشاعر :

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان بنيت العـــز طيب

وحقيقته : وكل مكان ينبت الله فيه العز الطيب ..

والعلاقة فى كل ذلك : معناهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى ، فى ملابسة الفعل ، لأنه مكانه ..

٦ – السببية : وفيها يسند الفعل إلى سببه ، كقوله تعالى : ﴿ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ...﴾ .. (المائدة : ٨) ..

والمعنى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل معهم .. وحقيقته : لا تدفعنكم أنفسكم بسبب شنآنكم لقوم على ألا تعدلوا معهم .. وكقوله تعالى : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (الذاريات : ٥٥) ..

وحقيقته : فإن الذكرى ينفع الله بسببها المؤمنين .. وهذا السبب قسمان : لأنه إما أن يكون سببا آمرًا ، وفيه يكون السبب عاقلا يأمر وينهى ، كالمثال التقليدى : بنى الأمير المدينة .. وحقيقته : بنى العمال المدينة بأمر الأمير ..

وقد يكون السبب مؤثرا (ليس عاقلا) .. كقول طالب مهمل :

« أفزعنى الامتحان » .. وحقيقته : فزعت بسبب الامتحان ..

وكقول عمر بن أبى ربيعة :

هاج فؤادى موقف ذكرنـى ما أعرف

وحقيقته : هاج الله فؤادى بسبب موقف ذكرنى بأمور أعرفها ..

ومن ذلك قول بشامة بن الغدير :

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيلُ الكماة ألا أين المحامونا

وحقيقة الإسناد : أفنى الله أوائلهم بسبب قيل الكماة ..

فالعلاقة فى كل ما مضى هى السببية .. والمراد بها مضاهاة المسند إليه المجازى للمسند إليه الحقيقى فى ملابسة الفعل له ، لأنه سببه ..

تلك علاقات المجاز العقلى كما بينها جمهور البلاغيين ..

المجاز العقلى واقع فى النفى والإثبات

ن الواضح أن المجاز العقلى بجميع صوره : يأتى فى الإثبات ، كما سبق فى الحديث عن علاقات هذا اللون .. وقد تساءل بعض الباحثين عن تصور المجاز العقلى مع النفى .. والتحقيق أنه يقع فى النفى كما يقع فى الإثبات .. فأنت إذا قلت عن عابد قانت : « صام نهارُه » أو « قام ليلهُ » : فلا ريب فى أن هذا مجاز عقلى علاقته الزمانية .. وهو جار فى الإثبات .. فإذا اثبت نقيضه وقلت : « العابد ماصام نهاره وما قام ليله » .. فهل تعد هذه الصورة من صور المجاز العقلى ؟ ؟

أجاب إمام البلاغة الفذ « عبد القاهر » – طيب الله ثراه – عن هذا التساؤل فقال : « إن الوصف لا يُنفى عن شيء حتى يتصور ثبوته له ، على معنى أنك لا تقول : فلان ماصام نهارُه .. إلا وأنت تسوغ وتجيز أن يقال : صام نهارُه .. فأنت لا تجرى فى النفى إلا على الطريقة التى جريت عليها فى الإثبات من الحقيقة أو المجاز .. فأنت مثلا لا تقول : ما أكلت الشمس .. لأنه لا يتصور ثبوت الأكل لها ، حتى يمكن تصور نفيه .. وقد أجاب التفتازانى فى « المطول » : بكلام قريب ، بل هو – فى حقيقته – مأخوذ من رأى عبد القاهر ..

وعلى ضوء من هذا التحليل البصير للإمام الجرجانى : يمكنك أن تقف على سر المجاز فى قوله تعالت كلماته : ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ...﴾ .. (البقرة : ١٦) ..

المجاز العقلى فى الإسناد إلى المبتدأ

عرف الخطيب القزوينى المجاز العقلى بقوله : « هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل .. »[١] .. ونقل عن الزمخشرى قوله : « وللفعل ملابسات شتى ، يلابس الفاعل والمفعول والمصدر والزمان والمكان والسبب .. »[٢] .

وبهذا يمكن القول : إن الزمخشرى والخطيب : لا يريان مجازا عقليا إلا فى إسناد الفعل أو ما فى معناه .. أما الإسناد إلى المبتدأ مما يوحى بأن الإسناد على غير ظاهره : فعندهما ليس بحقيقة ولا مجاز ، ومثلوا لذلك بالمبتدأ الذى أخبر عنه بالمصدر ، كقولك : « زيد عدل » .. فلا تأويل فى المصدر .. ومثل قولنا : « مررت برجل عدل » مما وصف فيه بالمصدر ، بلا تأويل فيه أيضا .. ، ومنه قول الخنساء فى وصف ناقة :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت فإنمـــا هى إقبـــال وإدبـــار

فإنه إذا لم يؤول المصدر بمشتق .. والتقدير : فإنما هى مقبلة ومدبرة ، وكلمة : عدل يعادل .. فإنه لا يكون فيه ضمير يعرب فاعلا له .. ويعمل فيه عمل الفعل ..

فإن لم يكن كذلك : فلا يدخل مثل هذا الأسلوب فى تعريف الحقيقة ولا فى تعريف المجاز ، لدى الخطيب والزمخشرى ..

ولكن الإمام عبد القاهر : جعل المجاز العقلى يعم إسناد الفعل أو ما فى معناه ، أو إسناد غير الفعل إلى أى مسند إليه ، مادام الإسناد على غير ظاهره ،

---

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٥٦ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٠ . ط . ثانية .

فقال فى ذلك : كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل ، لضرب من التأويل فهى مجاز[١] ..

فيكون إسناد المصدر إلى المبتدأ فى المثال السابق « فإنما هى إقبال وإدبار » .. من قبيل المجاز العقلى عند الإمام ، ذلك لأن الإقبال وإن كان صفة قائمة بالناقة ، لكنه غير محمول عليها مواطأة .. فإذا قلت : « أقبلت الناقة » : كان الإسناد حقيقة .. وإذا قلت : « هى إقبال » : كان مجازا ، لأن الإقبال بطريق الحمل إنما هو لأفراده ، فتقول : هذه الحركة إقبال .. وعكسها : إدبار .. فإذا حمل على غير أفراده ، كان محمولا على غير ما حقه أن يحمل عليه ، فيكون مجازا ..

ويقول عبد القاهر فى بيت الخنساء السابق : لم ترد بالإقبال والإدبار غير معنييهما الحقيقيين ، حتى يكون المجاز فى الكلمة لغويا .. وإنما المجاز فى أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ، كأنها تجسمت من الإقبال والإدبار .. وليس – أيضا – على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وإن كانوا يذكرونه .. لأننا إذا قلنا : إنما هى ذات إقبال وإدبار » : فقد أفسدنا الشعر على أنفسنا ، وخرجنا إلى شىء مغسول ، وكلام عامى مرذول ، لا مساغ له عند من هو صحيح الذوق ، نسابة للمعانى »[٢] ..

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٣٢ . ط . المنار .

(٢) المصدر السابق .

قرينة المجاز العقلى

القرينة لغة : مأخوذة من قرن الشيء بالشيء : إذا جمعه به وأصحبه إياه .. وهى فعلية بمعنى فاعلة أو مفعولة ، لأنها مصاحبة لما أريد صرفه عن ظاهره من الإسناد أو غيره ، أو مجموعة ومقرونة به .. هذا وتنقسم قرينة المجاز العقلى إلى قسمين :

١ – لفظية . ٢ – معنوية .

القسم الأول : القرينة اللفظية :

وهى أن يكون مع الإسناد لفظ يصرفه عن أن يكون مرادا به المعنى الحقيقى .. كقول ذى الرمة :

هل تعرف المنزل بالوحيد قفرا محاه أبد الأبيد
والدهر يبلى جدة الجديد لم يبق غير مثل ركود
غير ثلاث باقيات سود وغير بلقى ملعب الوليد[1]
حتى استحلوا قسمة السجود والمسح بالأيدى من الصعيد

ومعنى استحلوا قسمة السجود : جاز لهم قصر الصلاة ، والمسح بالأيدى من الصعيد .. والمراد به التيمم .. وهاتان قرينتان لفظيتان ، على أنه لا يريد بإسناد المحو والإبلاء إلى الأبد والدهر : حقيقته فيهما .. وإنما هو قد أسند الفعلين إلى زمانيهما ، أو سببيهما ، لأن الحديث عن جماعة يصلون ويتيممون ، فلا يظن بهم الإلحاد فى الدين ..

ومن هذا القبيل : قول أبى النجم العجلى :

---

(١) ثلاث باقيات : أنافى القدر ، بلقى : اسم مكان .

قد أصبحت أم الخيـــار تدعى على ذنبـــا كلـــه لـم أصنـع
من أن رأت رأسى كرأس الأصلع ميّز عنـــه قنزعـــا عن قـنزع

جذب الليـــالى أبطئ أو أسرعى[1]

فقد أسند تمييز هذه القنازع عن رأسه إلى مرّ الليالى .. ثم أقام قرينة لفظية ، على أنه لا يريد بهذا الإسناد حقيقته ، فقال :

أفنـــاه قيل الله للشمس اطلعـى

فضمير الغائب المفعول فى : « أفناه » يعود إلى الشاعر ، أو شعر رأسه ..

والمراد بقوله : « قيل الله » : أمره وإرادته .. فإن هذا القول منه يدل على أنه يعتقد أن الفعل لله ، وأنه المبدئ والمعيد .. وهذه قرينة لفظية تدل على أن الإسناد إلى جذب الليالى مجازى لا حقيقى ، فهو إسناد للفعل إلى زمانه أو إلى سببه ..

القسم الثانى : القرينة المعنوية :

وهى ألا يكون مع الإسناد لفظ يصرفه عن ظاهره ، بل يكون الصارف أمرا معنويا فقط .. وهى نوعان :

أحدهما : استحالة قيام المسند بالمسند إليه ، أو صدوره منه عقلا أو عادة .. وهذا يرجع إلى ما بين المسند والمسند إليه ..

ثانيهما : ما يرجع إلى حال المتكلم نفسه ..

فمثال استحالة قيام المسند بالمسند إليه عقلا : « نهار العابد صائم وليله قائم » .. لأن الصوم والقيام لا يقومان إلا بإنسان عاقل مسلم ..

---

(١) القنزع : الخصلة من شعر الرأس ، جذب الليالى : مضيها .

والمراد بالاستحالة العقلية : ما يجمع عليه الناس مما لا يحتاج إلى دليل على استحالته ، لأن العقل إذا خلّى ونفسه عده مستحيلا ..

ومثال استحالة صدور المسند من المسند إليه عادة ، قولك : « هزم صلاح الدين الصليبيين » ، « انتصر خالد على جيوش الرومان والفرس » .. من كل ما يكون فيه المسند إليه المجازى سببا أمرا ، أو آمرا مدبرا ..

ووجه الاستحالة هنا : أن العادة (لا العقل) هى التى تمنع صدور مثل هذه الأفعال من المسند إليه .. أما العقل فإنه لا يمنع صدورها منه لدخول ذلك تحت الإمكان العقلى ..

أما ما يرجع من القرينة إلى حال المتكلم نفسه : فصدور الكلام من الموحد .. كقول النبى ﷺ : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم .. » .. البخارى[1] .. فهذا الكلام صادر من سيد الموحدين – صلوات الله وسلامه عليه – وتلك قرينة على أن الإسناد فى « ينبت الربيع » .. « يقتل حبطا » : مراد به غير ظاهره .. فالإسناد إلى الربيع : إسناد إلى الزمان أو إلى السبب ، وإسناد الفعل « يقتل » إلى ما ينبت الربيع إسناد إلى السبب ..

وإنما لم نجعل صدور الكلام من الموحد ، من قبيل الاستحالة العقلية : لأن مثل إسناد الإنبات إلى الربيع والبقل إلى النبات وغيرهماك ليس مما يحيله العقل وحده ، وإلا لما ذهب إليه الكثيرون من الملحدين والدهريين ، ولما احتجنا فى إبطال مزاعمهم إلى الدليل تلو الدليل ..

* * *

(١) حبطا : انتفاخا ، يلم : يقارب .

أقسام المجاز العقلى باعتبار طرفيه

من الواضح أن طرفى المجاز العقلى هما : المسند والمسند إليه ، وهو ينقسم باعتبارهما إلى أقسام أربعة :

١ – كونهما حقيقتين لغويتين .. كقول جرير :

وشيّب أيـــام الفراق مفـــارقى وأنشزن نفسى فوق حيث تكون

يريد أن أيام الفراق شيبت شعره ، ورفعت روحه من مكانها إلى الحلقوم .

ومن ذلك قوله أيضا :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت ومـــا ليل المطى بنائم[1]

فإن طرفى المجاز العقلى فى : « شيب أيام الفراق مفارقى ، وأنشزن نفسى ، وما ليل المطى بنائم .. » : حقيقتان لغويتان ، بمعنى أن كلا من المسند والمسند إليه مستعمل فيما وضع له فى اللغة ..

٢ – أن يكونا مجازين لغويين ، كقولك : « أحيا النفوس مصابيح الظلام » .. فأحيا مستعار للهداية والإيمان .. ومصابيح الظلام مستعار للعلماء العاملين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. فطرفا المجاز العقلى هنا : مجازان لغويان ..

٣ – أن يكون المسند حقيقة لغوية والمسند إليه مجازا لغويا ، كقولك : « أنبت الأرض شباب الزمان » .. فالفعل « أنبت » مستعمل فى حقيقته .. أما فاعله : « شباب الزمان » : فهو مستعمل فى معنى : « الربيع » على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، وهى مجاز لغوى ..

---

(١) أم غيلان : ابنته ، السرى : السير ليلا ..

٤ – أن يكون المسند مجازا لغويا والمسند إليه حقيقة لغوية ، كقول المتنبى :

وتحيى له المـال الصوارم والقنا ويقتل مـا تحيى التبسم والجدا

فالمسند « تحيى » مستعار للزيادة استعارة تصريحية تبعية .. والمسند إليه « الصوارم » مستعمل فيما وضع له .. فهو حقيقة لغوية .. وفى المسند « يقتل » بمعنى يفرق : استعارة تصريحية تبعية ، إذ المراد به : يفرق المال فى العطاء .. والمسند إليه « التبسم » : حقيقة لغوية ، لاستعماله فى أصل معناه ..

* * *

بلاغة المجاز العقلى

إذا عُدل عن إسناد الفعل إلى فاعله الحقيقى ، وأسند إلى فاعله المجازى ، لإحدى العلاقات المشهورة فى المجاز العقلى : كان هذا العدول أبلغ مما سواه ، ذلك أنك إذا أسندت الفعل إلى سببه ، فقلت مثلا : « هزم صلاح الدين الصليبيين » كنت مبالغا فى تدخل صلاح الدين فى المعركة ، وكأنه هو الذى ألحق الهزيمة بهؤلاء الغزاة المستبدين ، فهنا نجد مبالغة ملحوظة فى تدخل المسند إليه المجازى ، وكأنه هو الذى أحدث المسند ، وليس الأمر كذلك إذا قلت « هزم جندُ المسلمين الصليبيين بأمر صلاح الدين » .. فإنك تجد المبالغة فى إثبات الفعل لفاعله المجازى قد زالت .. وبهذا يبدو للمتذوق البصير : أن الإسناد فى أسلوب المجاز العقلى أبلغ منه فى أسلوب الإسناد الحقيقى .. وهذا عندما يكون الفاعل المجازى سببا آمرا ..

أما إذا كان الفاعل المجازى ليس السبب الآمر : كانت المبالغة من جهة أخرى ، وهى المبالغة فى نمو الفعل وكثرته كثرة جاوزت الحد المعهود فى مثله .. فأنت إذا قلت : « رضيت عيشة المسلم » تكون قد بالغت بإسناد الفعل (رضى) إلى فاعله المجازى (العيشة) فى كثرة تحقق الفعل .. وكأن الرضا قد كثر ، وجاوز كل حد معهود ، وكأنك توهم أن الفعل قد جاوز فاعله الحقيقى (المسلم) إلى فاعله المجازى ، وكأن العيشة نفسها أصبحت راضية ، وهذا يدل على كثرة الرضا .. ومثل هذه المبالغة تجدها واضحة فى إسناد الفعل لزمانه ، أو لمكانه ، أو لمصدره ، أو لفاعله ..

ومن جهة أخرى : فإن منشئ المجاز العقلى يخيّل إلى السامع أن الفعل واقع من غير الفاعل ، وأنه كذلك واقع على غير المفعول .. وتلك لذة بارعة يدركها أرباب البصائر الأدبية السليمة ..

ومن ذلك ما روى أن يزيد بن أبى سفيان : ولى أمر الشام ، فصعد المنبر ، فأرتج عليه : فقال : « إنكم إلى أمير فعال ، أحوج منكم إلى أمير قوال » . فقال عمرو بن العاص (وكان موجودا) : « هن مخرجاتى من الشام » .. وهو يقصد كلمات يزيد الآنفة الذكر .. ولا شك أن المبالغة واضحة هنا ، ذلك لأن عمرا يخيل إلى السامع : أن الكلمات السابقة ليست مجرد سبب فى خروجه من الشام .. بل هن المباشرات لإخراجه منها فعلا .. وتلك مبالغة واضحة فى تدخل المسند إليه المجازى فى إحداث المسند ، وكأنه هو الذى أحدثه ، وتلك المبالغة يدركها ذواقو المعانى ، ومقدروها حق قدرها ..

وأنت حينما تقول : « شعر شعر وشوقى » : تخيل إلى السامع أن شعر شوقى .. هو الذى يقول الشعر ويحدثه .. وتلك مبالغة فى كثرة شعر شوقى ، وأنه جاوز فاعله الحقيقى (أمير الشعراء) ، لدرجة أن شعره ذاته (وهو المصدر) أصبح يقول الشعر .. ومن ذلك قول المتنبى :

وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله ولكن لشعرى فيك من نفسه شعر

فهو يبالغ فى كثرة شعره ، ويدعى على جهة الإنكار : أنه ما قال هذا الشعر كله .. ولكنه قال البعض .. وشعر شعره البعض الآخر ..

ومن ذلك أيضا قولهم : « عدل عدلُ عمر .. » ..

وفى قوله تعالى : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبا ..﴾ : تخييل دقيق : أن اليوم نفسه (يوم القيامة) هو الذى يحدث منه هذا الحدث الجليل ، وهو جعل الولدان شيبا .. وتلك مبالغة فى كثرة الفعل ، وإثبات أنه جاوز فاعله الحقيقى ، وصدر من فاعله المجازى وهو الزمان (اليوم) .. وتلك مبالغة فى شدة أهوال يوم القيامة ..

وأنت حينما تقول : « امتلأ السيل » .. تخيل إلى السامع : أن السيل مملوء لا مالئ .. وأن كثرته ملأت الوادى ، وجاوزته إلى السيل نفسه وملأته فامتلأ ..

وفى هذا مبالغة واضحة ، فى وقوع الامتلاء وكثرته فى الوادى نفسه .. ألا تراه قد جاوزه إلى الماء فكان فيه .. وتلك مبالغة واضحة .

وبهذا تتجلى أبلغية المجاز العقلى عن أسلوب الإسناد الحقيقى ..

* * *